

جمال الكاشف
أغرب من الخيال
بحار يشعل حربًا بأذنه المقطوعة.
بلدة فرنسية تحوّل أهلها إلى طائفة من المجانين.
آلة بشرية معاكسة .. ملاكم أسود قهر جميع البيض.
وكر الشيطان: صحراء جوبي لم تطرقها قدم إنسان من قبل.
جزيرة الدب ومأساة البوصلة الكاذبة.
معمّرون يكشفون أسرار طول عمرهم.
قطة موظفة فى الحكومة البريطانية.
مملكة النساء المفقودة.
عودة الإمبراطور الشريد.

جمال الكاشف

أغرب من الخيال !

- بحار يشعل حرباً بأذنه المقطوعة !
- بلدة فرنسية تحول أهلها إلى طائفة من المجانين !
- آلة بشرية مقاتلة : ملاكم أسود قهر جميع البيض !
- وكر الشيطان : صحراء جوبي لم تطرقها قدم إنسان من قبل !
- جزيرة الرعب ومأساة البوصلة الكاذبة !!
- معمرون يكشفون أسرار طول عمرهم !
- قطة موظفة في الحكومة البريطانية !
- عودة الإمبراطور الشريد !!
- مملكة النساء المفقودة !!

مكتبة ابن سينا
للنشر والتوزيع والتصدير
٧٦ شارع محمد فريد . تقاطع [illegible] . [illegible]
مصر الجديدة . القاهرة . ت ٤١٩٨٦٢٢ فاكس ٤٨٢-٤٤٨



كن غيورا ولا تكن حسودا فالحسد لا يقتل إلا صاحبه

عزيزى القارئ ..

القناعة كنز لا يفنى

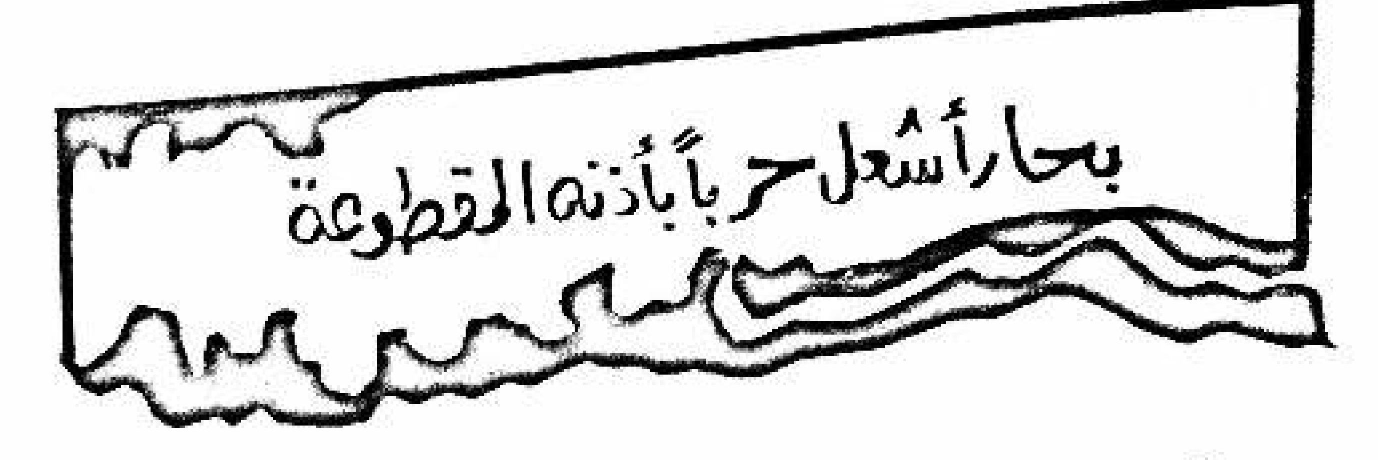
أنا واثق كل الثقة من أن موضوعات هذا الكتاب سوف تعجبك مضامينها لأنها أعجبتنى قبلك ، فاصطفيتها من بين مئات الموضوعات التى قرأتها فى مصادرها الأجنبية ، ورأيت ألا أستأثر وحدى بغرابتها وطرافتها وما فيها من ثقافة متنوعة ، وعكفت على تعريبها ولا أقول ترجمتها ، فالفرق واضح بين الترجمة والتعريب .

وهأنذا أضعها بين يديك ، بكل ما فيها من غرائب وطرائف ومفارقات ومعلومات ، لتعم الفائدة .

NADEER **والله الموفق .**

Ahmed **جمال الكاشف**

لو قنع الإنسان بما قدر الله له من أرزاق لعاش سعيدا فالمال وسيلة للعيش وليس غاية نعيش من أجلها



بحار أشعل حرباً بأذنه المقطوعة

قد يحتفظ رجل بحصاة أخرجها له الجراح من كليته ، أما أن يحتفظ بأذنه المقطوعة فى قنينة يطوف بها هنا وهناك فهذا أمر غير مألوف ، ومع ذلك فإن جنكنز فعل ذلك ، ولم يكف عن عرض أذنه المقطوعة إلا بعد أن أشعل بأذنه حربا أوروبية على نطاق واسع .

من المؤكد أن مراجع التاريخ البشرية لا تحمل بين سطورها أذنا أشهر من أذن جنكنز التى فقدها . . . تلك الأذن التى بترها أحد حراس السواحل الأسبان من رأس الكابتن روبرت جنكنز ، فالتقطها الأخير واحتفظ بها فى قنينة ، وقدمها إلى لجنة برلمانية برهانا على ما لقيه من معاملة وحشية وتسببت الأذن فى اندلاع حرب ضروس بين أعظم قوتين فى العالم آنذاك .

قبل المضى فى قضية أذن جنكينز ، يجدر بنا استعراض بعض أحداث النصف الأول من القرن الثامن عشر فى ذلك الجزء من العالم حينما كان « الكابتن جنكنز » يقود سفينته الشراعية ريبيكا على الطريق البحرى بين انجلترا وجامايكا .

كانت معاهدة أوتريشت التى أنهى توقيعها عام ١٧١٣ حربا تورطت فيها انجلترا وفرنسا ، وأسبانيا والنمسا ، قد أعطت انجلترا حقوقا تجارية معينة مع المستعمرات الأسبانية فى جزر الهند الغربية ، غير أن الطرفين سرعان ما خرقا شروط المعاهدة إذ دفع الجشع انجلترا للحصول على حقوق لم تقض بها نصوص المعاهدة ، الأمر الذى حدا بأسبانيا إلى مجابهة هذا بإجراءات انتقامية وانهارت الاتفاقية عام ١٧٣٠

فى هذه السنة أيضا ، كان حراس الشواطئ الأسبان قد اعتادوا اعتلاء

السفن البريطانية للبحث عن البضائع المهربة ، وغالبا ما كانوا يجدونها ، مما كان يعتبر إساءة بالغة لكبرياء الأسطول التجارى البريطانى كله ، وإهانة لبرلمان انجلترا ، وفى العام التالى صعد ضابط بحرى أسبانى على ظهر السفينة « ريبيكا » التى يقودها الكابتن « جنكنز » ، قرب هافانا عاصمة كوبا ، وعبث بمحتوياتها .

من الطبيعى أن يتشاحن الرجلان ، ويتطور الأمر بينهما إلى شجار ، ويتمكن الضابط الأسبانى من أذن جنكنز فيقطعها ، ويسلمها إليه قائلا : « خذ هذه إلى مليكك ، وقل له : أنى سأفعل الشيء به لو وجدته هنا » وضع جنكنز التعس أذنه فى محلول من الملح بقنينة وأبحر إلى وطنه ، ونفذ رغبة ضابط حرس السواحل الأسبانى ، فقدم أذنه إلى الملك « جورج الثانى » ملك انجلترا .



الملك جورج الثانــي

روبرت والبول

بيدأن الملك لم يعر الأمر اهتماما لكن جنكنز احتفظ بالقنينة ، وظل يعرضها ويروى قصتها فى المقاهى وفى كل الأماكن الساحلية أينما ذهب ، وكانت قصته تلاقى دائما آذانا صاغية نظرا لغرابتها .

مضت على هذا الحادث سبع سنوات ، تعرضت خلالها سفن بريطانية كثيرة للاعتداء من قبل الأسبان وحدثت حوادث مثيرة ومهينة ، حتى قيل

إن آخرين فقدوا آذانهم بنفس الطريقة ، واشتدت حدة التوتر بين البلدين وأخيرا فى أكتوبر ١٧٣٧ أجبرت المعارضة البرلمانية سير « روبرت والبول » على الاستماع إلى شكاوى البحارة البريطانيين من اعتداءات الأسبان ، أمام لجنة من مجلس العموم .

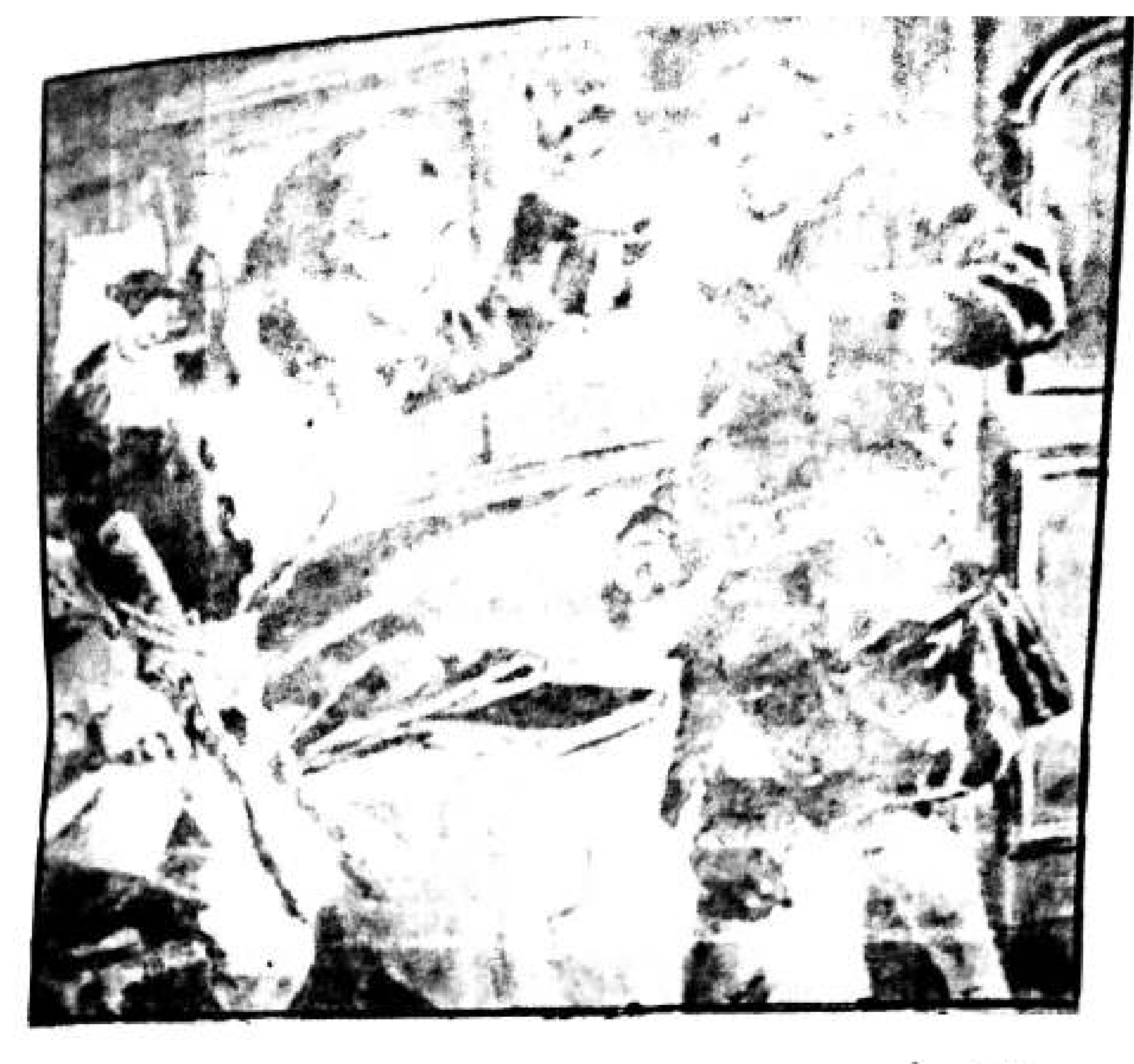
فى مارس ١٧٣٨ روى رجال البحر المعتدى عليهم ما جرى لهم على أيدى الأسبان ، كانت قصصا لا تخلو من طرافة ، خصوصا بعد أن أضافوا إليها حواشى المبالغة ، وصاح حاجب اللجنة مناديا كابتن روبرت جنكنز ، فتقدم الرجل بأذن واحدة ، والأخرى فى القنينة .

سرد جنكنز قصته التى أصبحت معروفة تماما بكل تفاصيلها ، وعندما وصل إلى العبارة التى أهان بها الضابط الأسبانى الذات الملكية البريطانية ، ساد الهرج والمرج جانب القاعة ، وخلال أيام قلائل أصبحت قصة أذن جنكنز على كل لسان .

تعالت صيحات الحرب ورغم أن رئيس الوزراء السير روبرت والبول كان رجل سلام لا يحب الحرب ، لكنه عجز عن إيقاف مد الغضب ، وفى عام ١٧٣٩ اندلعت شرارة حرب أذن جنكنز ، وبعد عام تورطت أوربا كلها فى حرب أخرى واستمرت طويلا إلى أن نفدت قوى المتحاربين ، ولجئوا إلى السلم عام ١٧٤٨ باتفاقية « ايكس لاشابل » التى لم تدم إلا زمنا قصيرا .

تلك هى الحقائق ، لكن الشكوك ما لبثت أن ألقت ظلالها على قصة جنكنز بعد سنوات من بداية الحرب ، وبعد أن طوى النسيان جنكنز ، قال البعض إن جنكنز لم يفقد أذنه فى البحر كما ادعى وإنما قطعت فى إحدى حالات التشهير والتعذيب ، ولم تكن القصة التى رواها أمام اللجنة البرلمانية سوى أكذوبة شجعته المعارضة على اختلاقها ، والواقع أن سلطات كثيرة تؤيد اليوم هذا القول .

قال آخرون : إن جنكنز لم يقف أبدا أمام اللجنة البرلمانية ولم يدل بشهادته ، وإن قصته اختلقت لإثارة الشعب ضد أسبانيا ولذا فإنه اعتبر محتالا قبيل وفاته عام ١٧٤٥



الواقع أن موضوع ظهور جنكنز أمام اللجنة البرلمانية يمكن تأييده لأن أمر حضوره إلى مجلس العموم ثابت بوثيقة رسمية فى البرلمان ، ومن ناحية أخرى فإن موضوع قطع أذنه بواسطة الضابط الأسبانى ثابت فى إحدى المجلات التى كانت تصدر عام ١٧٣١ وهو العام الذى وقع فيه الحادث .

تحت عنوان « أخبار الملاحة البحرية » كتب المحرر القصة كما رواها جنكنز ، وكيف أن حراس الشواطئ الأسبان اعتلوا ريبيكا وقطعوا أذن جنكنز وسبّوا الملك ، وجاء فى المقال بعد وصف ما تعرض له جنكنز من إهانة وتعذيب : « ثم بتروا إحدى أذنيه واستولوا على الشمعدانات والأدوات النفيسة ، واحتجزوه ، يوما كاملا ، ولما أطلقوا سراحه أنذروه بحرق السفينة ريبيكا ما لم تغادر الميناء إلى مياه الخليج خلال ٢٤ ساعة ، فأسرع جنكنز ، يفرد القلاع دون أن يستكمل تزويد سفينته بالمؤن ، وانطلق إلى

المحيط ودخل مياه نهر التيمس فى ١ يونيو بعد رحلة كلها مشاق وأخطار ، ثم عرض قصته أمام الملك » .

بهـذا يتضح أن المعـارضة البرلمـانية لا يمكن أن تكـون قـد دفعت جنكنز إلى شهادة ملفقة يدلى بها أمام اللجنة البرلمانية ، وهو الذى روى نفس القصة عن أذنه المفقودة قبل ذلك بسبع سنوات على الملك .

وهناك واقعة أخرى لصالح جنكنز ذلك أن سفينة انجليزية أسرت سفينة أسـبانية أثناء الحرب ، وكتب القبطان الانجليزى تقريراً إلى الأدميرالية البريطانية ، قال فيه : أن قبطان السـفينة الأسـبانية هو نفسـه الذى قطع أذن جنكنز .

وإنصافا لحقائق التاريخ ودوافع أحداثه ، يجب ألا نغفل عن أن جمرات البغضاء والكراهية كانت كامنة فى نفوس الشعب البريطانى تجاه الأسبان ، ولم تكن قصة قطع أذن جنكنز سوى السبب الذى كانت الحرب حتما ستندلع به أو بدونه بين البلدين .

كثيرا ما كانت تنشب المشاكل بينهما فى أعالى البحار ، وكانت هذه المشاكل ذريعة قوية للمعارضة ، تتكئ عليها فى المطالبة بتنحية « والبول » عن رئاسة مجلس الوزراء ، فقد جلس على مقعد الرياسة أطول مما يجب ، وإلى الحد الذى مله الشعب الراغب فى التغيير .

ولا شك أن المعارضة حث رجال البحر على تنميق رواياتهم بمبالغات مؤثرة ، وتختلف قصة جنكنز عن بقية القصص بأنها لا تحتاج إلى تنميق ، فقد كان فى تقديم أذنه فى قنينة ما فيه الكفاية للإثارة .

كانت السياسة فى القرن الثامن عشر نوعاً من الأعمال الشيطانية ولقد استغلت المعارضة أذن جنكنز سبع سنوات دون يأس ، حتى نجحت أخيرا فى دفع بريطانيا إلى أتون حرب ضد أسبانيا ، تورطت فيها أوربا ، ومع ذلك فإن قصة جنكنز قد لا تكون صادقة التفاصيل ، وقد يكون للمعارضة فيها بعض الإضافات فلا يعقل - مثلا - أن يتورط ضابط أسبانى فى سب ملك بريطانيا دون مبرر معقول .



منذ حوالى ٢٠٠٠ سنة غمر مدينة « بومبى » بحر من حمم بركانية جمدها بكل ما فيها على ما كانت عليه فى لحظة وقوع الكارثة لتكتشفها الأجيال التالية فى حالة كما لو كان الزمن قد توقف فجأة .

لابد وأن سكان « بومبى » العشرين ألفا كانوا يعلمون أن بلدتهم كانت أقل نصيبا من غيرها بمفهوم السلامة والأمان ، فلم تكن بعيدة عن جبل فيزوف البركانى . . . وكانت أساسات بيوتها قائمة على صخور أصلها حمم بركانية تجمعت خلال ثورة بركانية لا يذكر أحد متى حدثت فى زمن منسى مضى ، لكن جميع السكان آنذاك يذكرون بالأسى ذلك الزلزال العنيف الذى دك معظم أنحاء المدينة قبل ١٦ سنة ، وفى عام ٧٩ ميلادية كانت كمية كبيرة من المبانى تنتظر استكمال إعادة تعميرها . . ومع ما أصاب المدينة وما يحيط بمصيرها من مخاوف ، إلا أن حركة البناء فيها كانت تنمو وتنتشر بمعدل يثير الدهشة . . . ترى لماذا ؟

يرجع سر نهضة « بومبى » وسبب إقبال الأثرياء على تعميرها ، إلى أنها كانت بقعة أنيقة حديثة العهد ، اصطفاها أثرياء الرومان الباحثون عن منتجع يلجئون إليه للراحة والاستجمام .

وذكر كثيرون أن « بومبى » على الساحل الغربى لإيطاليا كانت تنمو بسرعة فائقة ، وبدأت المشروعات التجارية والعمرانية تزدحم فيها ، وتحول ملاكها الفقراء إلى طبقة ثرية جديدة ، أجادوا الدعاية لأراضيهم وما تتميز به « بومبى » من طبيعة وسحر وقد ساد شعور آنذاك بأن « بومبى » أصبحت ذات طابع رومانى أكثر مما يجب . كانت معظم مبانيها فى الأصل ذات طابع محلى لا تخطئه العين ، وكان جميع السكان فخورين بأناقة مدينتهم

كان الطابع المعمارى الرومانى قد بدأ يسود المدينة بعد أن دمرتها الزلازل . وكان هذا الطابع فجًا غير مصقول ولا مستساغ إذا ما قورن بالفن المعمارى المحلى ، وسواء كان أنيقا أو غير أنيق فإن جمال بومبى وازدهارها ورخاء الحياة فيها لم يكن موضع إنكار لدرجة أن أحد تجارها الأغنياء ترجم هذه الحقيقة بأن وضع على باب الفيلا التى يملكها لوحة من الرخام مكتوب عليها شعار هو : **هنا نربح** ولا شك أن العائلات الأسبق منه ثراء وعراقة كانت تتندر على من كان مثله وهم كثيرون ، بأنه محدث نعمة أو حديث العهد بالثراء ، ولاشك أيضا أنهم يتوقعون مثل هذه الأمور من الطبقة الجديدة .

فى ٢٤ أغسطس عام ٧٩ ميلادية ، لاحظ سكان المدينة ظهور ما يشبه سحابة داكنة معلقة فوق قمة جبل **فيزوف** ، لم يهتم بها الناس كثيرا ، على الرغم من أن هزة أرضية عرضية كانت كفيلة بإشاعة القلق فى النفوس وتحويل تفكيرهم إلى الدمار الذى أحدثه الزلزال الأخير قبل ١٦ سنة ، وفجأة بدت السحابة السوداء الداكنة وكأنها انفجرت نحو السماء متخذة شكل نخلة البلح ثم بدأت تمطر المدينة على السفح بالشظايا والحمم ، لا يوجد حتى الآن دليل واحد على أن الذعر استولى على الناس فى الحال . فقد احتمى البعض بمساكنهم وآثروا الانتظار وراء الجدران وخلف الأبواب حتى يهدأ البركان . وآخرون فضلوا الذهاب إلى أعمالهم بعد أن ربطوا وسائد إلى رءوسهم تحميها من الشظايا واجتمع حشد كبير لأمر ما غير معروف فى أحد المسرحين الموجودين فى المدينة وأكبرهما ، والثابت أن الزحام لم يكن بقصد الاستمتاع بعرض مسرحى ، ذلك لأن **الأمبراطور نيرون** كان قد حظر العروض المسرحية لمدة عشر سنوات بأمر امبراطورى كعقاب عام جزاء قيام البعض بأعمال التظاهر والشغب فى شوارع المدينة والمرجح أن أهل بومبى اجتمعوا فى المسرح ليشاهدوا انفجار الجبل ويناقشوا موضوعه .

مهما يكن سبب اجتماعهم فإنهم لم يبقوا طويلا ، فمع غروب الشمس ، والسحب المظلمة تخفى خيوط أشعة الشمس الذابلة وتصب

سوادها على المدينة ، بات من الصعب على السكان أن يهتدوا إلى طريقهم ولو على ضوء القناديل .

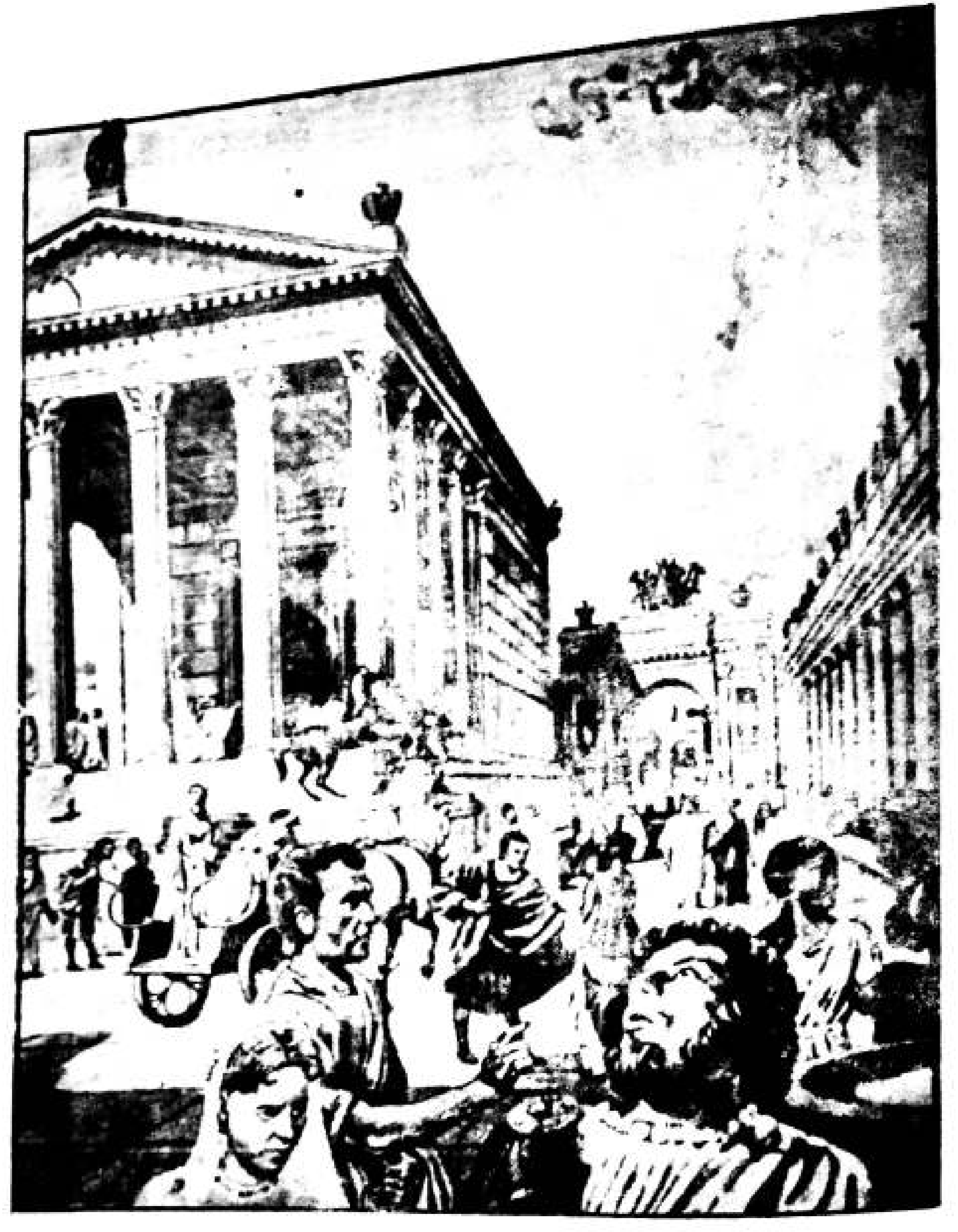
واستأنف البركان صب رماده على بومبى بغزارة متزايدة حتى تحقق السكان فى النهاية أنهم يواجهون كارثة ساحقة ، وفى ليلة واحدة اختفت المدينة ببساطة تحت وابل الشظايا والرماد بعمق عشرة أمتار .

هلك عشر سكان بومبى تقريبا ولا يعرف أحد حتى الآن السبب الحقيقى لهلاكهم ، وكان الكاتب الرومانى بلينى الأصغر يراقب الكارثة من مكمن على بعد آمن ، فكتب وصفا رائعا لما استطاع مشاهدته ، لكن أحدا لم يسجل الدقائق الأخيرة لأحوال الناس فى الطرقات .

من المحتمل أن يكون معظم الألفى ضحية فقدوا حياتهم باسفكسيا الاختناق نتيجة غاز الكبريت ، وعندما توقف ثوران البركان عاد الناجون ليجدوا بومبى مدفونة بأكملها وحضر بعضهم فى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أموالهم ومقتنياتهم ، لكن جميع الناجين من أهل « بومبى » ابتعدوا عن المدينة المنكوبة ليبنوا بيوتا جديدة لأنفسهم فى مواقع أخرى والغريب أنهم نسوا فى فترة وجيزة أن هناك مدينة اسمها « بومبى » كان لها وجود فى وقت ما ، ومرت قرون عديدة قبل أن يفكر انسان فى بومبى مرة أخرى ، حتى جاء المهندس دميفيكو فونتانا فى القرن السابع عشر ، وعثر على أطلالها أثناء قيامه بإنشاء قناة تحت الأرض .

كانت قلة نادرة فى ذلك العصر تهتم بالتنقيب عن الآثار ، ولذا ظلت أطلال بومبى على مدى ربع قرن نهبا للصوص المحليين والمنقبين الهواة الذين تنقصهم المهارة ، يزيحون الرماد ويحملون ما تصل إليه أيديهم .

وفى عام ١٧٣٨ علم ملك نابولى بما كان يجرى ، فوضع موقع المدينة تحت رعايته ، وعين لها خبراء مضوا فى عمليات التنقيب ببطء لكن بثبات ، إلى أن أصبحت بومبى فى عام ١٨٦١ خاضعة للحكومة الإيطالية ، وما يزال حتى اليوم ثلث المدينة مدفونا تحت التراب لكن أعمال التنقيب مستمرة تحت إشراف علماء آثار متمرسين ، يستخدمون أحدث أساليب التنقيب العصرية مع الحرص على ألا تصاب الحفريات بأى عطب .



معبد جوبتر يمثل روعة بومبي المعماري .

إذا زرت « بومبي » اليوم وشاهدت أطلالها فإنك لن تشك فيما يقوله لك المنقبون هناك من أن المدينة انتهت بنهاية مريحة إذا قيست بنهاية مدن غيرها في نفس الظروف التعسة .

بالقرب منها توجد مدينة هرقل مدفونة في نفس الوقت ، لكنها

اختفت تحت طوفان من الوحل والحجارة تحولت على إثره إلى صخور صلبة ، وفوقها قامت مدينة ريسينا العصرية مما جعل التنقيب عن مدينة هرقل عملية مستحيلة ، بينما مقبرة بومبى المكونة من الرماد الهش ، جعلها سهلة التنقيب ، وأبعد كل تفكير فى بناء مدينة فوقها ، وفيما عدا الأسقف المنهارة ، فقد أمكن الكشف عن مبانيها فى حالة لا تصدق من الحماية والوقاية .

والغريب جدا فى هذه المدينة التى عادت إلى الوجود بعد ألفى سنة ، أن تجد معسكرات المصارعين كما كانت عليه ، ومدرجات المسرحين والحمامات كاملة بأحواض السباحة وأحواض المياه الساخنة والباردة والعادية ، والتسخين المركزى وغرف الملابس بما فيها من خزانات وفى القصور الكبيرة والمتوسطة ترى الجدران مزينة بلوحات الجص ذات الألوان المتألقة لم تحل ، وفى بعض الحدائق أمكن التعرف على البذور التى طال أمد دفنها ، كما أمكن إعادة زراعة التربة حتى يستطيع الزائر رؤية أحواض الزهور كما كان يراها أصحابها الأصليون تماما .

هناك يتملك الإنسان شعور غريب بالعودة إلى ماضى الزمان ، لكن هذا الشعور الأولى يشتد حينما يترك الزائر الأماكن الضخمة ويتجول ببساطة فى الشوارع الصغيرة العادية ويتطلع إلى الدكاكين المفتوحة . . المخبز والفرن كما تركه صاحبه ، بأرغفة صلبة عمرها ألفى سنة ، لا تزال على القرص فوق الفحم وستوديو المثال ملآن بأعمال لم يستكملها بعد .

وإذا أمطرت السماء أثناء زيارتك لأطلال بومبى فإنك تستطيع عبور الطريق بعيدا عن الوحل فوق أرصفة صنعها أهل بومبى من الأحجار للسماح للعربات بالمرور ، وعلى جدران المبانى العامة تشاهد ما يقرأ لك المرشد من عبارات الدعاية الانتخابية وأعجب ما فى أطلال بومبى هو شعور الزائر بمناخ الحياة اليومية فيها وكأنه مألوف ، ثم شعوره وهو يغادرها بأن سكانها لم يكونوا يختلفون كثيرا عن سكان عالم اليوم .



عندما ارتجت المباني ، وانفجرت شبكة المياه ، وانطلق أهالي مانهاتن إلى الشوارع خوفا من الزلزال . كان رجال الشرطة وحدهم هم الذين خمنوا الحقيقة ، ولم تكن تلك الحقيقة ، سوى أن نيكولا تيسلا المخترع الكرواتي ، الذي عاش في نيويورك منذ عام ١٨٨٨ ، قد عاد إلى ممارسة حيله وألاعيبه الغامضة .

وكانوا على حق ، إذ عندما اقتحموا مختبر أبحاث تيسلا وجدوا العبقري وسط حطام آلة غريبة معقدة ، ما يزال يدمرها بقسوة مستعملا مطرقة ثقيلة .

تطلع الرجل إليهم قائلا : « لقد فات الأوان أيها السادة . . . انتهت التجربة ، وحطمت جهاز إرسال الذبذبات الديناميكية بعيد المدى الذي صنعته ، لم يكن كبيرا جدا ، ولكنه كان قويا بما يكفي لتحويل ناطحة سحاب امباير ستيت إلى كومة من الحجارة خلال دقائق ، لو استعملته هناك .

العالم مدين له بالضوء والحرارة وتسجيل الصوت :

على الرغم من أن البوليس لم يفهم شيئا من حديثه ، إلا أنهم أخذوا قوله على محمل الجد والخطورة ، ذلك لأن « تيسلا » كان قد تفوق على أديسون الشهير ، بإثباته أنه بالإمكان عن طريق التيار المتغير ، استخدام الكهرباء للإضاءة ، والطاقة ، على بعد مئات الكيلو مترات من محطات توليد الكهرباء ، بينما التيار المستمر المنسوب إلى أديسون لا يمكن إرساله إلا لمسافات قصيرة .

والمعروف أن التيار المباشر او المستمر ، الذى يستخدم فى المصابيح اليدوية ، يسرى فى اتجاه واحد فقط ، بينما التيار المتغير أو المتردد ، يسرى مغيرا اتجاهه ١٠٠ مرة فى الثانية ، وهو قادر على السريان إلى مسافات بعيدة جدا ، دون أن يفقد من قوته إلا النزر القليل .

على أى حال ، فإن تيسلا كان زاهدا لا يهتم بالمال وترك غيره يجمعون الثروة من تزويد المساكن والمصانع بالتيار الرخيص .

وفى عام ١٨٩٨ رحل إلى كولورادو ، وأقام هناك سارية ارتفاعها ٦٠ مترا ، على قمتها كرة من النحاس الأصفر ، أوصلها بمحطة لتوليد الطاقة ، فأنتج رعدا وبرقا على نطاق استطاع أن يزلزل المولد الموجود على بعد عدة كيلو مترات ، ويسقطه .



نيكولا تيسلا

ولد « تيسلا » عام ١٨٥٧ ، ولما كان طالبا صمم مولدات الكهرباء التى كانت قاصرة الفعالية فى ذلك الوقت واستطاع تحقيق ذلك الهدف بجعلها صالحة للاستعمال ، ثم اكتشف التيار المتردد واخترع مكبر صوت



هاتفى لم يجد من يستعمله آنئذاك ، لكن صانعى الحاكى « الجراموفون » ، احتاجوا له بعد ٥٠ عاما ، واستخدموه فى تكبير الصوت قبل توصيله إلى البرق ، ومهد هذا المكبر الصوتى السبيل أمام إمكانيات تسجيل الصوت والموسيقى وإنتاج الاسطوانات على نطاق تجارى عالمى .

تحويل الليل إلى نهار :

وفى عام ١٩٠٠ عرض « تيسلا » فى حديقة ميدان ماديسون بنيويورك سفينة توجه بالراديو ، واخترع فى وقت فراغه أنابيب النيون التى تستعمل الآن فى الدعاية الضوئية أينما اتجهت الأنظار ، وتحقق من أن موجات التيار القصيرة تستطيع تدفئة كثير من أعضاء الجسم ، فاخترع وسيلة لتخفيف آلام المفاصل باستعمال الكهرباء .

أصبح مشهورا – وإن ظل فقيرا – فعندما أعلن أنه يستطيع صنع أشعة الموت ، صدقه العلماء ، لكنهم احتفلوا سرا فيما بينهم حينما لم يجد وقتا لتنفيذ فكرته وانتهت حياته دون تحقيقها .

وكان « تيسلا » قد أعلن ذات مرة خطته لإضاءة السماء ليلا وجعلها كوضح النهار ، باستنباط تيار كهربائي عالي التردد يصل إلى ١٢٠٠٠ أمبير .

وقال ناقدوه : « هذا مستحيل » لكن تيسلا ابتسم قائلا : « قلتم ذلك أيضا حينما أعلنت عزمي على توليد التيار المتغير . أليس كذلك ؟ » وظل يؤكد أنه يعرف كيف يضيء السماء ليلا بضوء يضاهي ضوء الشمس ، لكن أجله لم يمهله حتى ينهي تجاربه لتحقيق تلك المعجزة أيضا وعلى الرغم من أنه كان دائما يردد أنه سوف يعيش حتى يحتفل بعيد ميلاده المائة والخمسين ، إلا أنه مرض في أواخر عام ١٩٤٢ ، ولازم الفراش ، ولم ينته شهر يناير عام ١٩٤٣ ، وإلا وقد فارق تيسلا الحياة .

وعلى الرغم من أن تيسلا كان داخل المختبر عالما بما في الكلمة من معانٍ ، إلا أنه خارج المختبر كان غريب الأطوار استمتع بحياته طولا وعرضا ، وكان ينفق المال بإسراف ، فينساب من قبضته انسياب الماء بين الأصابع ، معللا النفس بأن اختراعه التالي سيدر عليه ثروة لا تنفد وكان مغرما بلبس القفاز حتى أنه كان يشتري واحدا كل أسبوع ، وكان يستهلك كميات كبيرة من المناديل ، ويلقي بالمنديل الحريري بعد استعماله مرة واحدة .

وفي قمة شهرته كان إذا دخل مطعما طلب أكواما من مناديل الورق توضع أمامه ، وقبل أن يتناول طعامه يستغرق وقتا في تنظيف الصحون والملاعق والشوك والسكاكين بنفسه .

لم يستعمل منشفة سبق استعمالها من قبل ، كان له في كل مرة يغتسل منشفة جديدة وكان لا يصافح أحدا ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، أما وقته المفضل للعمل فكان الليل حينما ينتشر السكون والهدوء .

بعـد موته وجدوه يحتفظ بوثيقة منحه الجنسية الأمريكية فى مكان حريز ، أما الميداليات وجوائز التقدير ، وشهادات الشرف العلمية التى فاز بها على اختراعاته ، فوجدوها ملقاة بإهمال كأنها نفايات أو قمامة .

فاز بجائزة نوبل عام ١٩١٢ لكنه رفضها لأنها ربطت باسم أديسون ، وكان تيسلا لا يعتبره عالما مذ سخر منه حينما أعلن أنه قادر على توليد التيار الكهربائى المتغير ، ثم أثبت عكس نظر أديسون .

ولعل من أعجب ما عرف عنه أنه كان مغرما بالحمائم كما كانت الحمائم مغرمة به ، إذ كانت تحلق حوله بالمئات عندما يصفر لها ، وتتبعه داخل الفنادق والمكتبات وكثيرا ما كانت إدارات الفنادق والمكتبات وأصحاب المطاعم والمقاهى ، يطلبون منه مغادرة المكان ، حينما يملأ الحمام الغرف ويزعج الرواد والنزلاء .



ولما توفى فى يناير عام ١٩٤٣ ، قلب رجال المخابرات المركزية الأمريكية مسكنه رأسا على عقب ، بحثا عن وثائق وأبحاث ظنوا أنه يحتفظ بها ، عن صناعة الزلازل ، وتحويل الليل إلى نهار ، وأشعة الموت وغير ذلك من الاختراعات ، لكنهم لم يعثروا على شئ إطلاقا .



وتحققوا بذلك من صدق **تيسلا** حينما قال ذات مرة : « من أجل الحصول على براءة اختراع ، لابد أولا من ضمان السرية المطلقة ومن صنع نماذج ، ولا أستطيع صنع نماذج لأنى لم أمتلك مطلقا من المال ما يكفى لصنعها ، لأنى أنفق المال أولا بأول ، ولهذا فأنا احتفظ بأفكارى فى جمجمتى ، فهى المكان الأمين الوحيد الذى يحتفظ بأسرارى » .

وعندما توفى **تيسلا** لم يحضر جنازته سوى عدد قليل من الناس وأصبح اسمه فى طى النسيان بعد سنوات قليلة ، وفى يومنا هذا ، لا تجد من بين كل ألف شخص يعرفون **توماس ألفا اديسون** واحداً فقط يعرف القليل عن **نيكولا تيسلا** ، العبقرى ، الذى يدين له العالم باختراع الطاقة التى تنير ، وتبرد ، وتدفىء وتحرك القرن العشرين .



نجت الفتاة من موت محقق ، لتجد نفسها وحيدة تشق طريقها إلى العمران ، وسط غابة كثيفة ، يتربص بها خطر الوحوش والأفاعي والحشرات والهوام من كل جانب ، وهي عزلاء لا سلاح يحميها ، ولا غذاء تقتات به سوى كيس من الحلوى . . . حتى جسمها لم يكن يستره سوى رداء رقيق ، لا يكاد يقيها من لدغات البعوض .

كانت جوليان كوبك تجلس بجوار أمها في طائرة تحلق في سماء أدغال بيرو ، ذاهبتين لتمضية كريسماس عام ١٩٧١ في بوكولبا حيث يعمل أبو جوليان بمحطة أبحاث الغابات هناك ، وهو عالم ألماني المولد ، اسمه الدكتور هانز ولهلم كوبك .

غير أن الأم والابنة لم يقيض لهما الوصول إلى وجهتهما ، فقد اجتاحت الطائرة عاصفة عنيفة أشعلت فيها النار وانفجرت في الجو . نجت جوليان بأعجوبة ، اندفع مقعدها بقوة الانفجار وهي مربوطة إليه بينما تبعثر الضحايا وحطام الطائرة فوق مساحة كبيرة ، ونجت جوليان وحدها من الكارثة .

فتاة في سن السابعة عشرة ، مصابة بجروح في قدمها ، وكسر في عظمة الترقوة ، ضالة وسط أدغال موحشة واسعة الأطراف كلها وحوش وأفاع ، وكل أنواع الحشرات والنباتات السامة . . . كيف تنجو من الأخطار في مثل هذا المأزق ؟ . . . لا طعام ، ولا بوصلة ولا حتى خريطة .

كانت جوليا فتاة جريئة لا يطير لبها شعاعا . . . ومن حسن الحظ أنها كانت تألف الأدغال لأنها عاشت من قبل مع والديها في محطة بوكولبا



جوليانا تسجل مغامرتها

للأبحاث عدة سنوات . . . وكان أبوها قد نصحها إذا ضلت في الغابة أن تحاول العثور على نهر ، حتى تجد على شاطئيه مستوطنات الهنود والبيض ، فالأنهار هي طرق الغابات .

وانطلقت الفتاة على قدمها المجروحة تبحث عن نهر الأمل ، وتسجل إحدى قصص الشجاعة التي تفوق كل خيال .

مشت بحذر تتحاشى التعثر في ثعبان أو عنكبوت سام ، وكانت تتفحص مواقع أقدامها لمسافة طويلة بعصا اتخذتها من غصن مستقيم وبعد وقت طويل طرقت أسماعها أصوات هدير مياه . . . ظنته نهر الأمل ، لكنه لم يكن سوى غدير صغير . . . مياهه رائعة . . . ارتوت منها جوليانا ، واستأنفت السير في جو حار خانق .

من الغريب أن كسر الترقوة لم يعقها كثيرا ، إلا أن جرح القدم بدأ يلتهب ويشتد الألم لحظة بعد أخرى ، وهي تقتفي أثر الغدير واثقة أنه لابد وأن ينتهي بنهر .

ازداد إيمانها بالنجاة حينما تذكرت تجربة شاب أمريكي ضل طريقه في الغابة قرب بوكولبا ، ومثل جوليانا لم تكن معه بوصلة ، ولاغذاء وتتبع

شاطئ النهر بشق بوكولبا حتى اهتدى إلى محطة الأبحاث ، حيث كانت جوليانا تعيش مع والديها .

قالت لنفسها : ما دام قد عاش ونجا ، فسوف أعيش وأنجو . . . ومضت تردد هذا الشعار تستمد منه مزيدا من الشجاعة والأمل .

لما ألقى الليل على الغابة عباءته السوداء لاح لها النهر فواصلت المسير ، ونامت على الشاطئ ، ثم استأنفت السير بحذاء النهر عندما انبلج نور الصباح ، تخوض المياه بين الحين والآخر لتبرد آلام قدمها ، مفتحة العينين لما عسى أن يظهر من تماسيح ، وأسماك « بيرانها » ذات الأسنان الحادة ، التى تهاجم ضحاياها فى مجموعات تعد بالآلاف ، وتستطيع تمزيق الإنسان أو الحيوان فى دقائق ، ولا تبقى منه إلا الهيكل العظمى .

على هذا الحال مر يومان وفى اليوم الثالث سمعت أزيز إحدى الطائرات الكثيرة التى تبحث عن الطائرة المفقودة وركابها ، لكن كثافة أغصان الغابة المتشابكة حجبت الحطام عن طائرات البحث ، ورغم يقينها من عقم المحاولة إلا أنها لوحت للطائرة وهى تصيح من الأعماق :

النجدة . . . النجدة . . . أنا هنا ، فلا الطيار رآها ، ولا هو سمع صياحها . . . وابتعد عن الأنظار .

واصلت جوليانا رحلة العذاب والأمل ، حتى إعترضت طريقها جحافل جيش نمل مهاجر كانت تعرف أنه خطير جدا ، حاولت أن تتجنب الخطر بالخوض فى مياه النهر حتى وسطها ، ولما وصلت قبالة سجادة النمل الهائلة المتحركة رأت عدة تماسيح كبيرة تتجه نحوها ، فخرجت من مياه النهر مسرعة .

فى تلك اللحظة كانت قد تناولت آخر قطعة من الحلوى وبعدها عض الجوع أحشاءها ونال منها الإرهاق ، وفقدت الشعور بالزمن ، فى ذراعها جرح ملتهب علاوة على جرح القدم وكسر الترقوة ، وأصبح الصراع من أجل البقاء كابوسا مؤلما ، وبلغت جوليانا نقطة الانهيار فى اليوم التاسع .



تشق النهر بعيدا عن جيوش النمل ...

فى اللحظة التى أوشكت فيها على الانهيار شاهدت زورقا صغيرا من الخشب مربوطا على شاطئ النهر ، وكان ذلك المشهد كفيلا برفع روحها المعنوية ، فسلكت دربا ضيقا يصل إلى مكان الزورق بالغابة . . . فعثرت على كوخ صغير لكنــه خالٍ فتغطت بغطاء من البلاستيك وجدته فى الكوخ ، لتحتمى به من البعوض . . واستغرقت فى نوم عميق .

ولما استيقظت فى الصباح قررت ألا تنتظر حتى يأتى أحد إلى الكوخ إذ ربما يطول انتظارها لأسابيع دون أن يحضر أحد . . . ولما عادت إلى النهر

وجدت ثلاثة رجال يخرجون من الغابة وكانوا من « المسيزو » وهم خليط من دماء هندية وأوروبية ، يعيشون على قطع الأشجار وتعويمها مع تيار النهر إلى مستوطنة تورنا فيستا ، ولهم عدة أكواخ فى أماكن مختلفة من الغابة وكان من حسن حظ جوليانا أن عثرت على واحد من تلك الأكواخ ، الذى قال عنه الرجال إنهم يستعملونه مرة واحدة كل شهر .

روت جوليانا القصة للرجال فدهشوا وعبروا عن صعوبة تصديقهم لرواية الفتاة البيضاء الصغيرة التى استطاعت أن تفلت من الموت مرتين : فى الجو والأرض . . قال أحدهم : قد تكون نجت جوا بضربة حظ مثيرة . . . أما فى الغابة بين الوحوش والزواحف والجوع فإنها تحتاج إلى ألف حظ لتعيش .

بادر الرجال بإطعامها وتضميد جراحها ، ونقلوها فى زورق إلى تورنافيستا على نهر باشيتيا ، وفى تلك البلدة أبرقوا رسالة بالراديو إلى باكوليا من مطار هناك صغير ، فأرسلوا طائرة صغيرة نقلتها إلى أبيها الذى كان قد فقد الأمل فى نجاة زوجته وابنته .

وفى لحظة اللقاء فقط ذرفت الفتاة الشجاعة الدموع فى أحضان والدها لأول مرة منذ بدأت المحنة . . . وبكى أبوها من الفرح وتماثلت جوليانا للشفاء ، وتناقلت أجهزة الإعلام قصة نجاتها فى مختلف أنحاء العالم . . إنها إرادة الله شاءت ألا تستسلم بطلتها فى معركة الحياة .



مخلوقات عملاقة تثير فزع سكان ميسورى وفلوريدا ..

ظلت الجنيات وغيرها من المخلوقات الغريبة المخيفة الغامضة تسيطر على خيال الإنسان منذ فجر التاريخ ، فنسج حول رؤاها المبهمة أساطير وأقاصيص توارثتها الشعوب ، واستقرت كجزء من التراث الثقافى حتى فى أكثر المجتمعات تقدما يتحدث عنها البعض على أنها حقائق قائمة[1] ويسخر منها البعض باعتبارها تخيلات وأوهاماً من مخلفات الفكر الميتافيزيقى المتخلف . ومن هؤلاء فريق يرى أن مثل هذه المخلوقات لا وجود لها إلا فى عقول كهنة المجتمعات المتأخرة الوثنية ، الذين كان من مصلحتهم أن يظل عقل الفرد خاضعا لمختلف أسباب الخوف ، حتى يظل فى حاجة دائمة إلى تعاويذ الكهنة ورقاهم وتمائمهم ، فتستقر سيطرتهم التيولوجية الوثنية على أفراد المجتمع مسلمين لهم القياد ، ويرى هؤلاء أيضا أن الاعتقاد بوجود الجنيات والمخلوقات الغامضة الغريبة ، تعزز فى الأذهان بما رواه على مر الزمن بعض البحارة والأفاقين ، من مشاهدات بعضها ملفقة وبعضها الآخر رؤى باهتة استكملوا صورها بخطوط وألوان من صنع الخيال .

ومن مفترق الطرق بين الشك واليقين ، يبدأ علماء الحيوان رحلتهم لتقصى الحقائق هكذا فعلوا فيما يتعلق بالبحث عن حقيقة مخلوق عجيب يمشى منتصب القامة ، طوله حوالى ٧ أقدام له وجه إنسان وجسم يشبه جسم القرد .

مارد ميسورى :

بسبب مارد ميسورى ، هرب ادجار هاريسون بأسرته من البلدة ، تاركا العمل الذى أمضى فيه ٢١ سنة من عمره ، وعاد إلى « لويزيانا » مسقط

---

(١) فى القرآن الكريم سورة كاملة عن الجن (رقم ٧٢) استمعوا إلى القرآن ، وكان منهم الصالحون ، ومنهم ما هو دون . لديهم قدرة على التشكل .

رأسه مفضلا البطالة والفاقة ، على أن يموت هو أو أحد أفراد أسرته ، على يد ذلك المارد المجهول ذى الرائحة النتنة ، وعبثا حاول أصحاب العمل إثناءه عن عزمه . وكان كلما تحدث وصف حال ابنه وابنته وهما يجريان ويصرخان بينما الفزع المميت مرتسم على وجهيهما بعد رؤية المارد فى الغابة . ثم ينهى حديثه مؤكدا أنه ذاهب بلا عودة .

وتصف ابنته دوريس - ١٥ سنة - ما رأته فتقول : إنها سمعت صراخ شقيقها « تيرى » آتيا من الغابة التى تمتد خلف البيت ، فخرجت تجرى نحو مصدر الصوت فملأت خياشيمها رائحة عفنة لم تطرق مثلها أنفها من قبل ، ثم رأت شيئا مخيفا . . . ماردا ارتفاعه حوالى ١٠ أقدام ، يقف منتصبا كالإنسان على قدميه ، يغطى كل أنحاء جسمه شعر أسود غزير طويل ، ورأت فى يده جثة كلب ما تزال تنزف دما ، فلم تجرؤ الفتاة على الاستمرار فى النظر إلى المـــارد ، وهربت تنجو بجلدها ، لجأت إلى أبيها تصرخ وتستنجد به . وذهب « ادجار هاريسون » إلى الغابة يستجلى حقيقة الأمر كان المارد قد اختفى لكن الرائحة الرهيبة ظلت باقية ، ورأى الأب آثار أقدام على أرض الغابة طول القدم ١٠ بوصات ، وعرضه خمسة ، بثلاثة أصابع فسارع بصب قالب من الجبس ليحتفظ بآثار الأقدام ، ثم سلمها فيما بعد إلى هايدين هيوز مدير المكتب الدولى لأبحاث الأجسام الطائرة المجهولة .

رأى الشرطة وعلماء الحيوان :

ولمــا سئل « هــيوز » فى رواية ادجار وأولاده ، قال : إنــها رواية حقيقية لا أثر فيها للوهم أو الاختلاق ، واستدل على صحة شهادته بأن فحص آثار الأقدام أثبت أنها طبيعية لا افتعال فيها وأضاف أن علماء الحيوان قد أنهوا دراستهم لها ، وجاء فى تقريرهم أنها آثار أقدام مخلوق لم ير الإنسان مثله حتى الآن أو يعرف له شبيها .

وشهد شيلى وارد مدير شرطة مسيسبى الذى تتبعه تلك البلدة ذات الأربعة آلاف وأربعمائة نسمة . . . شهد بأن كل الأدلة تثبت أن الرواية



— ادجار هاريسون يشير الى
حيث وجد المارد .

صحيحة ، وأن بلاغ ادجار وأولاده ليس الأول من نوعه فى تلك البلدة ، إذ
أن بلاغات كثيرة عن مخلوق غريب عفن ، وردت إلى الشرطة ، وأضاف أن
هذا المخلوق يفزع السكان ، بدرجة أن البعض ماتوا من الهلع لمجرد رؤياه ،
وذكر مدير الشرطة أنه يتلقى حوالى ١٠ بلاغات تليفونية كل ليلة عن هذا
المخلوق من مواطنين محترمين موثوق بهم ، وتنتشر الإشاعات بأن الناس
يهاجرون من البلدة ، على الرغم من محاولات المسئولين إقناعهم بأن المخلوق
المخيف ربما يكون دبا ، أو شخصا يتنكر فى فراء غوريلا ضخمة . لكن
الناس يجيبون متسائلين : « هل فى الدنيا غوريلا طولها عشرة أقدام ؟ » .

ويعقب مدير الشرطة على القضية بقوله : « المخلوق يختلف عن كل ما
أحاول تصويره للناس . ويخيل إلى فى بعض الأحيان أنه إما مارد من الفضاء

الخارجي ، أو جنس من حيوانات ما قبل التاريخ كما يعتقد البعض ، لكن ما يحيرنا هو أننا فتشنا الغابة مرارا دون أن نعثر له على أثر سوى آثار أقدامه ، التي تنقطع فجأة ، وفي أماكن لا تخطر على بال . ولذلك فنحن والعلماء في حيرة من أمره » .

ومن بين الذين أدلوا بشهادتهم صياد سمك في الثالثة والستين من عمره اسمه ايليس ماينور ، أمضى حياته بأكملها في تلك البلدة . قال « لقد رأيت المارد ولا ألوم هاريسون على استقالته من العمل ورحيله عن المنطقة ، فقد أفعل نفس الشيء ، إنه مخلوق حقيقي . أبشع مما صوره هاريسون وأولاده ، تبدو رائحته وكأنه ميت منذ مئات السنين . لقد رأيت مئات الدببة ، ولكنه لا يشبهها في شيء ولا يشبه أيا من المخلوقات التي صنعها الله لتدب على الأرض » .

وقالت طالبة ثانوي اسمها تيمي ماكروميك : إنها رأت المارد في الغابة وأبلغت أمها لكنها رفضت إبلاغ الشرطة آنذاك خشية أن يتهمها الناس بالجنون . وأضافت تيمي قائلة : « رائحته تشبه الدخان المتصاعد من احتراق أطنان القمامة وعرق مئات من فرق كرة القدم » .

تقرير المكتب الدولي للأجسام الطائرة :

وقد اهتم المكتب الدولي للأجسام الطائرة المجهولة بتلك البلاغات وقام هايدن هيوز مدير المكتب بنفسه ، يساعده اثنان من مساعديه الباحثين ، بمقابلة الشهود وأصحاب البلاغات ، وتدوين أقوالهم ، ثم دراستها للتحقق من صحتها بعد فحص آثار أقدام المخلوق العجيب المجهول . وذكر هيوز في تقريره النهائي :

« إن البيانات التي أدلوا بها تدل على أنهم شاهدوا بالفعل ذلك المخلوق ، كما أن الأوصاف التي ذكروها تطابق تماما بعضها البعض ، كما تطابق تماما التقارير التي وردت إلى المكتب ، عن مخلوقات مشابهة ، شوهدت في مختلف أنحاء البلاد ، خلال السنوات القليلة الماضية ، ليس لدى أدنى شك في أن هؤلاء المبلغين شاهدوا شيئا لا هو بالإنسان ولا هو من بين الحيوانات التي يعرفها الإنسان ، لقد ورد إلى مكتبنا منذ أنشئ عام



– جون وبلبار احد رجال الحملة ، يحمل قالبا من الجبس لاثر اقدام المخلوق المجهول .

١٩٥٧ حتى الآن حوالى ٣٠٠ بلاغ عن مشاهدة مخلوقات مجهولة لكننا لم نستقبل من مكان واحد ، في فترة زمنية قصيرة ، مثل هذا العدد الكبير من البلاغات عن مخلوق مجهول » .

مخلوق مستنقعات فلوريدا :

أما مخلوق مستنقعات فلوريدا ، فقد كان خمسة من علماء الآثار أول من شاهدوه أثناء رحلة استكشافية بمنطقة مستنقع « سايرس الكبير » وكان على رأسهم دكتور « هـ . س . اوزبون » .

أوزبون ، الذى يبلغ من العمر ٤١ سنة ، هو رئيس جمعية بنسولار للآثار ، ومدير متحف ميامي للعلوم ، روى أوزبون قصته مع المخلوق العجيب فقال :

« كنا في رحلة تنقيب . وعسكرنا ليلا في منطقة المستنقعات واستيقظ أحد الرجال على صوت قال : إنه يشبه وقع خطوات الفيل بجوار الخيمة ، ولما فتح باب الخيمة وشاهد المخلوق صاح يستنجد ، فاستيقظت وأسرعت خارج خيمتى فرأيت شيئا أشبه برجل عملاق . ولما دققت النظر ، كان الوقت فجرا ، رأيت أنه بلا رقبة ، ورأيت جسمه مغطى بالشعر كالقردة ، وفر المخلوق دون أن تتاح لى فرصة لمزيد من التدقيق ، تاركا وراءه رائحة

رديئة ، وآثار أقدام طولها ١٧,٥ بوصة وعرضها ١١,٥ بوصة فى منطقة الأصابع ، كان المخلوق يحمل نفس الصفات التى تنطبق على الرجل القرد الذى ورد كثيرا فى أساطير الهنود الحمر » .

وصار أوزبون يخرج إلى منطقة المستنقعات مرة كل ثلاثة أسابيع ، فى رحلة مع فريق العلماء ، للبحث عن المخلوق . لكنهم لم يوفقوا لرؤيته مرة أخرى ، وإن كانوا كثيرا ما سمعوا صوته ، ووجدوا آثار أقدام حديثة له ، استنتجوا منها أنه لا يقل عن سبعة أقدام طولا ، وأن وزنه لا يقل عن ٧٠٠ رطل .

وبتكرار الرحلات لاحظوا وجود آثار أقدام مختلفة القياسات واستنتجوا من ذلك الاختلاف أن بمنطقة المستنقعات أكثر من واحد من هذه المخلوقات ، ربما أسرة ، أو جماعة صغيرة .

واستطاع أوزبون ورفاقه أن يتركوا عددا كبيرا من آلات تسجيل الأصوات فى أماكن متفرقة من المنطقة ، فحصلوا على تسجيل لأصوات عديدة سريعة على أحد الأشرطة .

وقد ذكر نورمان العمان آمين متحف جنوب فلوريدا فى مدينة برادنتون ، أنه رأى آثار الأقدام الهائلة تلك على الطين والرمال منذ سبع سنوات قبل رحلته الأخيرة مع أوزبون وأنها لم تكن تختلف عما رآه فى الرحلتين الأخيرتين .

ولم تقتصر رؤية هذا المخلوق على علماء الآثار وحدهم . فقد شاهده بعض المواطنين وأبلغوا شرطة فلوريدا ، فكلفت الضابط هنرى رينج بقيادة حملة للبحث عن ذلك المخلوق ، يقول رينج : إنه بعد أسبوع من البحث والترقب ، رآه فى منتصف الليل ، وعلى ضوء القمر المكتمل ، يعبر الطريق فى منطقة مشجرة كثيفة ، على بعد عشرة أميال من مدينة لودرديل . كان يمشى كالغوريلا له ذراعان طويلان متدليان إلى جنبيه يكاد كل ذراع منهما يصل إلى الأرض ، لكن قامته كانت منتصبة ومن سوء الحظ أن الضابط رينج لم يكن مستعدا لاقتناص المخلوق ، ويعترف الرجل بأنه لم يكن مصدقا بوجوده أصلا ، ولكنه فى هذه المرة تأكد من أنه حقيقة موجودة ، فأبلغ رؤساءه يؤكد صدق البلاغات . وقد أجمع « أوزبون »

ورفاقه علماء الآثار ، والضابط رينج ، على اعتقادهم بأن المخلوق العملاق المجهول ليس متوحشا ، لا يميل إلى العنف وإن كانوا لا يستبعدون تميزه بقوة هائلة مدمرة ، قد يضطر إلى استخدامها إذا تعرض للأذى .





الأرض التى اكتشفها الفايكينج فى أمريكا الشمالية أين كانت ؟ ما من أحد يستطيع اليوم أن يحدد على وجه اليقين موقعها . وهكذا بقى موقع هذا الاكتشاف لغزا من أكثر الألغاز التاريخية غموضا حتى على مؤرخى اسكندينافيا والجزر البريطانية الذين هم أشد شغفا من غيرهم باستجلاء ذلك السر .

مجرد صيحة تقول : بأن الفايكينج قادمون ، كانت كفيلة بدفع تيار بارد من الرعب فى عروق البريطانيين والايرلنديين والفرنسيين الذين عاشوا على سواحل تلك البلاد منذ ألف سنة ويزيد .

كان هؤلاء الاسكندنافيين الملتحين القساة يجدفون على طول سواحل الشمال الغربى لأوربا ، ويجتاحون كالأعاصير كل ما يعترض طريقهم فى حروب يستخدمون فيها السيوف والفئوس ، فلا ينجو من العدو إلا من ضاعف الفزع من همته وألقى ساقيه للريح ، ومن أبطأ ليجمع شيئا من متاعه دفع حياته ثمنا له .

بدأ الفايكينج غاراتهم بحثا عن الأسلاب يعودون بها إلى بلادهم الاسكندينافية ، ثم لم يلبثوا أن تحولوا إلى البحث عن أرض يحتلونها ويستقرون عليها ، وانتشروا عبر القارة كالجراد فإذا طاب لهم المقام فى أرض اغتصبوها ، واتخذوها وطنا إلى الأبد ، ولذا فإن « وليم الفاتح » الذى ارتبط اسمه بتاريخ حكم انجلترا عام ١٠٦٦ كان من سلالة الفايكينج الذين استقروا فى شمال غرب فرنسا .

بعضهم ذهب إلى أبعد من أوربا هربا من الشتاء القارس الطويل الذى يجثم على بلادهم الاسكندينافية . منهم من وصل إلى ايسلنده . ومنهم من أوغل فى البحر الأبيض إلى شمال أفريقيا ، وإلى سوريا .

قبل موقعة « هاستينج » بمائة وخمسين عاما كان سكان ايسلندة حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة معظمهم سلالات الفايكينج الغزاة الاسكندنافيين .

فى ذات يوم تشاجر زعيم ايسلندى « ايريك الأحمر » مع القنصل فنفاه . فأبحر « ايريك » مع عدد من أتباعه على ظهر سفينة اتجهت نحو الغرب المجهول ، وبعد أيام وصلت إلى أرض تكسوها قمم جبال ثلجية ، ولا يسكنها بشر .

أطلق « ايريك » على هذه الأرض « جرينلاند » قائلا : إن هذا الاسم سوف يغرى الكثيرين بالهجرة ، واجتذب الاسم بالفعل كثيرين من الفايكينج إلى جرينـــلاند ، فزاد عـدد سـكان المستعمرة عـلى مر الزمن .

هيرجالفسون واحد من أتباع ايريك ، فكر ابنه بجارنى فى زيارته فأبحر من ايسلنده إلى جرينلاند ، وعلى مقربة من نهاية رحلته هبت عاصفة دفعت به إلى أن يحتل مكانه فى التاريخ ، ذلك أن الشراع المربع الوحيد عجز عن مقاومة العاصفة ، وتعذر على الرجل التحكم فى سفينة تقاذفتها الأنواء ، فلما سكنت حدة الطبيعة رأى « بجارنى » أرضا فى الأفق . ليست أرض أبيه ذات الجبال تتوجها الثلوج وعلى العكس من ذلك فقد كانت الأرض الجديدة سهلة مستوية تغطيها غابات كثيفة .

أدرك بجارنى أن الرياح دفعت بالسفينة إلى أبعد مما كان يتصور فقاوم رغبة جامحة فى استكشاف الأرض الجديدة ، لخوفه من أن تكون حافلة بمخاطر ليس مستعدا لها ، فالغابات تغص عادة بقبائل شرسة لاترحب بالغريب . فصحح طريقه إلى جرينلاند وهناك التقى بأبيه .

لم تكن الأرض التى شاهدها بجارنى سوى جزء من أميركا . وعندما وصل جرينلاند روى القصة للقنصل ، وهو « ليف ايريكسون » ابن الزعيم



ليف ايريكسون

ايريك الأحمر . وكان « ليف » عملاقا وسيما قوى الشكيمة ، فعول على ألا مرى أمر تلك الأرض الجديدة . بعض المؤرخين ذكروا أنه أبحر عام ٩٩٩ إلى النرويج ، ثم عاد إلى جرينلاند بعدها بعام ، وعصفت به الرياح قبل الوصول إليها كما عصفت بزميله من قبل إلى الأرض التى وصفها له . البعض الآخر كتب أن « ليف » عمد بتلك الرحلة إلى اكتشاف الأرض الجديدة . ومهما تكن الروايات فإن « ليف » شاهدها عام ١٠٠٠ ، وفتح أول صفحة من المعرفة للأوربيين عن القارة الأميركية .

رست سفينة « ليف » لأول مرة على شاطئ ثلجى أسماه « هيلولاند » واسمه حاليا « لبرادور » ، واتجه إلى الجنوب الغربى فشاهد منطقة غابات أسماها « ماركلاند » ، التى أعاد كابوت اكتشافها بعد ذلك بخمسمائة عام وأطلق عليها اسمها الحالى « نيوفاوندلاند » .

استمر ليف فى رحلته حتى وجد بلادا يشقها نهر ينبع من بحيرة ويصب فى بحر ، أسماها فى مذكراته « فينلاند » هذه البلاد لا يعرف أحد موقعها على وجه التأكيد ، فبقيت لغزا استغلق تفسيره على المؤرخين والجغرافيين . يقول بعضهم : إنه ربما قصد جنوب نوفاسكوتيا . أو ما تعرف الآن بإقليم « مين » .

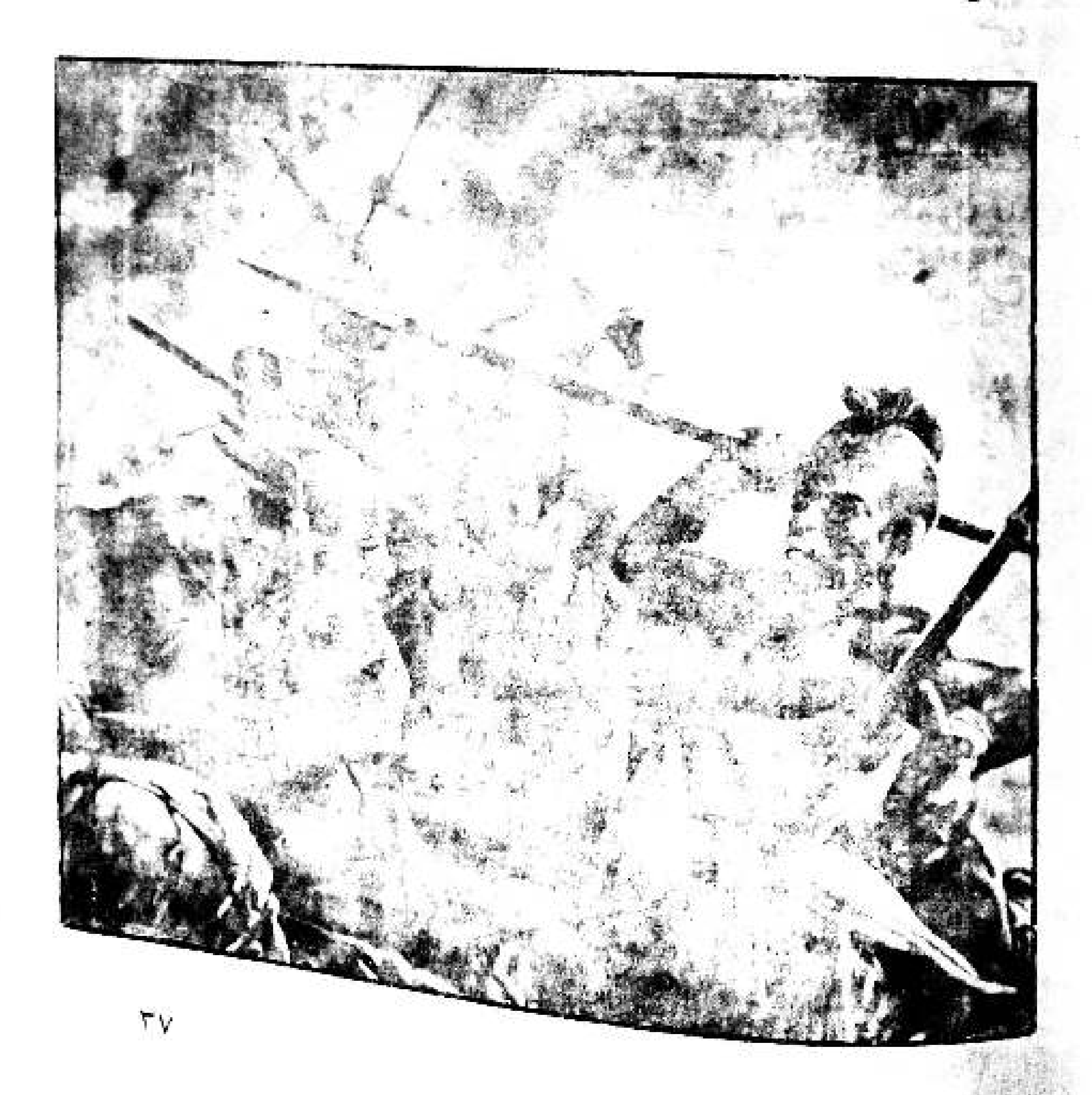
لم يذكر « ليف » فى مذكراته الوقت الذى أمضاه فى تلك البقعة



دفعت العاصفة ليف ورجاله الى ارض جديدة .

كل ما ذكره هو أنه ورجاله عانوا من نقص مياه الشرب العذبة واللحم فلجئوا إلى تلك الأرض حيث وجدوا الأشجار محملة بالثمار ، فأشعلوا المواقد وتناولوا وجبات شهية ، وجوَّلوا فى تلك الأرض ، ثم عادوا إلى جرينلاند عام ١٠٠١ حيث كان « ابريك الأحمر » قد توفى ، فاهتم « ليف » بالميراث وانتهت حياة المغامرة والارتحال بالنسبة له .

فى العام التالى أعار سفينته لأخيه « تورفالد » فأبحر بها إلى فينلاند لكنه وصل إلى المكان الذى تقع فيه حاليا مدينة نيويورك ، حيث لقى مصرعه فى معركة نشبت بين رجاله وبين الهنود الحمر ، فعاد أتباعه إلى جرينلاند



فى عام ١٠٠٥ أبحر أخ ثالث اسمه تورستين على نفس السفينة إلى فينلاند ولكنه توفى أثناء الرحلة ، فتزوجت أرملته « جودريد » ايسلاندياً اسمه تورفين كارلزفينى وحثته على تكرار الرحلة إلى فينلاند معها . وتم لها ما أرادت عام ١٠١٧ فأبحر ومعه ١٠٦ رجال ونقلا على السفينة ماشية وكل الأدوات اللازمة لحياة جماعة فى أرض يهاجرون إليها ، فقد قرروا الاستيطان فى الأرض التى اكتشفها « ليف » من قبل .

عندما وصلوا إلى غايتهم ، بدءوا بناء الأكواخ على الشاطئ وفى غمرة ضجيج المطارق سمع الجميع صرخة طفل وليد ، لقد وضعت جودريد أول طفل أوربى ترى عيناه النور فى أميركا ، واسمته « سنارو » لكن سنارو لم ينعم بالسلام ، فلم يلبث أن شاهد حرباً ضارية شنها الهنود الحمر على الغرباء المتطفلين ، ولم يستفد الفايكينج من شجاعتهم الأسطورية أمام شراسة الهنود الحمر وكثرة عددهم وكانت مذبحة اضطرت الفايكينج الباقين إلى الفرار بجلدهم ، وعندما عادوا إلى جرينلاند وجدوا أن ليف ايريكسون قد مات ، ولم يفكر أحد فى تكرار الذهاب إلى فينلاند فبقيت صفحة فى تاريخ الفايكينج .





* رحلة ١٥٠٠ كيلو متر لبناء عاصمة جديدة .

اكتشف الملك محمد تاج الحق موقعا رائعا لقلعة حصينة بحيث يستحيل على أعتى الأعداء اقتحامها ، وهذا أمر هامّ ، أما أن يأمر كل فرد من سكان العاصمة دلهى بأن يحمل حاجياته على العربات التى تجرها الثيران ، وينضم إلى القافلة الطويلة مع سكان المدينة المهاجرين ، فى رحلة طولها ١٥٠٠ كيلو متر ، إلى حيث القلعة الجديدة ، فهذا عمل جنونى لم يقدم عليه حاكم فى التاريخ سوى الملك محمد تاج الحق المغولى .

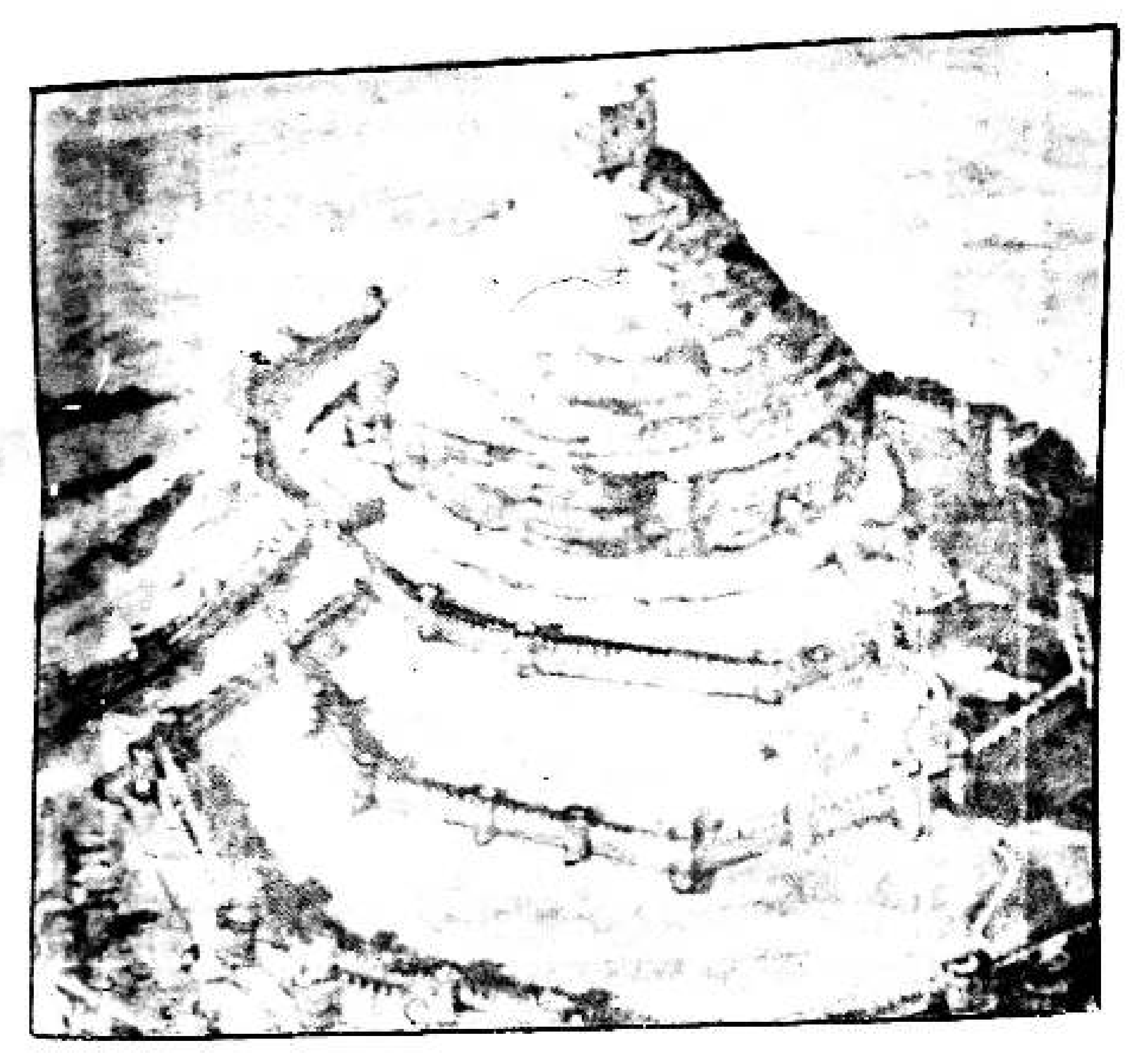
كرة هائلة من الغبار تتدحرج فى أفق أواسط الهند التى ألهبتها شمس الصيف الحارقة ، وهى تقترب من الفلاحين الذين راحوا يفركون أعينهم يرقبونها مذهولين يتساءلون عن شرها فلما اقتربت وجدوا فى بطنها قافلة ما رأت فى مثل ضخامتها عين .

فى المقدمة سارت طلائع فرسان الجيش ، ووراءها صفوف فيلة تتبعها مئات العربات تجرها الثيران خلفها حشود مختلطة من نساء ورجال انحنت ظهورهم تحت ثقل المتاع والأطفال وهم يهرولون كأن الشياطين تسوقهم .

أفسح الفلاحون الطريق للقافلة ، ومن ثغرات أكواخهم تابعوا مشهد العمر بل مشهد الدهر ، بما فيه من فيلة تحمل هوادج تحيطها أستار حريرية مزركشة بزخارف وعقود القرن الرابع عشر ، ومن بين ثناياها يظهر نساء ورجال علية القوم وبلاط الملك ، فى مزيج من البدانة والديباج والجواهر ، تتجاهل عيونهم فى كبرياء واشمئزاز ، تلك الكائنات البشرية التى تخترق بنظرات الفضول سحب الغبار على جانبى الطريق ، وتتطلع إليهم مأخوذة

وعلى ظهر أول [illegible] تتقدمها جلس الملك محمد تاج الحق .

حكم هذا الملك الهند فى الفترة من عام ١٣٢٥ - ١٣٥١ ، وخرج ذات يوم فى رحلة يتفقد مملكته فرأى صخرة جرانيت كالبرج فوق سهل يتوج أرضا مرتفعة تسمى ديوجيرى ارتفاعها عن سطح الأرض يزيد على



٨٠٠ متر ، حينئذ ومضت فى ذهنه فكرة إنشاء حصن فى ذلك الموقع ؛ تحيطه مدينة تظل أعجوبة الزمان ، وأيقن أنها سوف تكون قلعة يستعصى منالها على أقوى الأعداء ، وقرر أن يسميها دولت أباد . وحينما عاد إلى دلهى بعد ١٤٠٠ كيلو متر أصدر أغرب مرسوم ملكى فى التاريخ ، ويقضى بهجرة كل سكان العاصمة القديمة إلى الموقع الجديد . ومعهم كل متاعهم وماشيتهم ، فلا يبقى فى المدينة سوى أطلال المبانى وانصاع الناس فبدأت مسيرة مركبات الثيران فى القافلة التى أذهلت الفلاحين على طول



الطريق . ولما أصبحت دلهي مدينة مهجورة عاد الجنود يفتشون المساكن ومعهم أمر ملكي بقتل كل من سولت له نفسه عصيان أمر الملك ، فلم يجدوا غير العجزة الذين أقعدتهم عاهاتهم عن اللحاق بالركب . وفي « دولت أباد » انطلق المهاجرون يبنون المدينة الجديدة التي ما تزال حتى اليوم إحدى عجائب الدنيا

كان الملك محمد تاج الحق يعمل ألف حساب للغزاة والثوار ، فبنى جدارا ارتفاعه ستة أمتار ، على دائرة محيطها أربعة كيلو مترات حول الصخرة البرج ، وأحاط الجدار بخنادق تحميها وعلى الزائر إذا أصبح داخل السور الخارجي أن يمر خلال ثماني بوابات على جدران دفاعية أخرى ، قبل أن يصل إلى البوابة المؤدية إلى قلعة الملك . وبين القلعة والسور الخارجي توجد أطلال العاصمة التي كانت جديدة آنذاك والتي ما تزال قائمة حتى يومنا

هنا ، وقد كتب عنها الكاتب الرحالة البريطاني المعروف هارولد ايلفن يقول : « منسية بائسة حزينة ترقد دولت اباد بين الأدغال مدفونة أطلال قصورها ومساجدها ومعابدها ودواوينها . . . عالم ضائع مهجور ، كان قبل خمس قرون عامرا بالحركة والجمال والأبهة والثراء الخيالي » .

مدخل القلعة منحوت في الصخرة البرج ، يصل إليه الزائر عبر جسر فوق خندق عرضه أكثر من ١٣ مترا ، ينتهي بنفق مقطوع في الصخر بنعومة عجيبة تجعل المشي على حوافه أمرا مستحيلا للنملة والثعبان وفي حنايا النفق الكوة بعد الأخرى ليختبئ فيها الحراس ثم يهاجمون بغتة أي



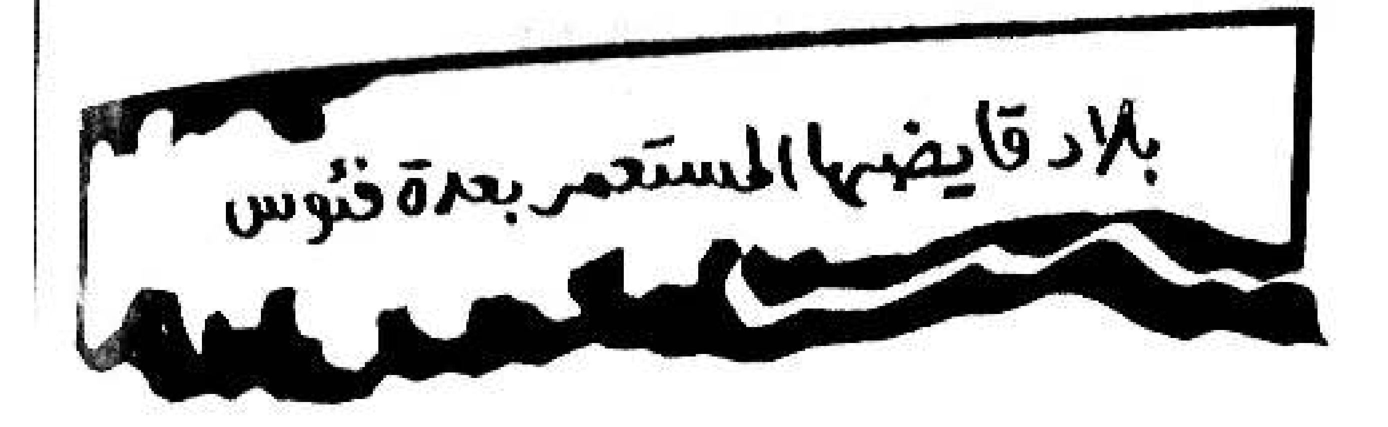
احد ابراج قلعة دولت اباد

زائر غير مرغوب فيه . وسرعان ما يتشعب النفق الصلب إلى ثلاثة دروب ، يهب من أحدها تيار هواء بارد ، مما يوحي للغازي بأنه الطريق الصحيح فيسلكه دون أن يكتشف الحيلة التي حاكها المهندس الذي بنى القلعة حتى يجر الغريب فجأة إلى بئر عمقها ٢٥ مترا في بطن الأرض . أما الممر الصحيح فهو أقل الممرات الثلاثة إغراء بالسلوك فهو يتجه بميل إلى أعلى نحو فتحة مستديرة مغطاة بغطاء حديدي طوله ستة أمتار وسمكه حوالي سنتيمترين ونصف ، فإذا تعرضت القلعة لغزو أغلقت الفوهة بالغطاء الحديدي الشبكي ، وغطي بلظى الفحم المتوقد ، حتى يصبح الممر تحتها

قطعة من الجحيم ، ويرى الزائر الآن هذا الغطاء ملقى بجانب الفتحة مهملا . بعد الفتحة رحلة طويلة على مجموعات من الدرج تحرسها حصون صغيرة ، تؤدى إلى قصر الملك محمد تاج الحق ، حيث يقيم مع حاشيته ويحكم البلاد . وبعد ١٧ عاما من المقام فى دولت أباد سمح الملك لمن شاء من المهاجرين أن يترك العاصمة الجديدة ويعود إلى دلهى . ولم يلبث أن هجر الملك نفسه قصره المنيع وعاد إلى العاصمة المهجورة .

مرت ثلاثة قرون أخرى ، واستهوت ملك مغولى آخر فكرة الإقامة فى دولت أباد . كان ذلك الملك هو « شاهجهان » المشهور بكثرة مبانيه وفى مقدمتها « تاج محل » فى مدينة « اجرا » قرر أن يقيم فى دولت أباد وانتقل إليها عام ١٦٣٦ جاعلا منها مقرا لحكمه لكنه لم يطق الحياة فيها أكثر من عام واحد ثم هجرها بعد أن بنى لنفسه قصرا منيعا فى قمة الصخرة .





عندما حاول الرحالة الهولندى أبل تاسمان إنزال رجاله على شواطئ جزر نيوزيلاند ، هاجم الأهالى زوارقهم ، والتهم رجال قبيلة الماورى أحد البحارة . . . فبادر تاسمان بالإقلاع مبتعدا عن الشاطئ ليواصل رحلته . . . وقد أطلق على موقع هذه المعركة القصيرة اسم « خليج السفاحين » .

ومضى على هذه الواقعة أكثر من قرن ، قبل أن يغير الكابتن كوك الانجليزى على تلك الجزر النائية ، ويحتل الجزيرة الجنوبية ثم جاء قسيس بريطانى واشترى الأرض بعدة فئوس ، وجعلها مهداً للاستعمار .

كان أبل تاسمان أول رجل أوروبى رأى نيوزيلاند ، ومع ذلك لم تطأ قدماه أرضها ـ على حد قول الانجليز ، لأن سكانها « الماورى » استقبلوا رجاله بما يليق بالغزاة . . . هجموا على الزوارق الصغيرة وانهالوا على البحارة بهراوات غليظة قصيرة بضربات قاتلة ، وبلغ من فرط الغيظ أن أعمل البعض فى لحم البحارة أسنانهم نهشا عندما سقطت منهم هراواتهم أثناء المعركة ، فوصفهم تاسمان بأنهم من أكلة اللحوم البشرية ، وانتهت المعركة القصيرة بموت أربعة هولنديين ، وفرار الباقين إلى المركب الشراعى الأم فى عرض البحر .

هز القبطان تاسمان رأسه مندهشا ، لأنه لم يتوقع ذاك الاستقبال العنيف ، إذ أنه كعادة المستعمرين الجدد ، كان قد حمل الزوارق التى جدفت نحو الشاطئ بسلال مملوءة بهدايا للماورى ظنا منه أن يستطيع إغراءهم بما فيها ويبادلهم عليها بخضروات وفواكه وماء للشرب ، ولما خاب ظنه فرد قلاعه ، وسلم سفينته لمهب الرياح وسمى مكان المعركة على خريطته ـ خليج السفاحين ـ واعتبر نفسه ورجاله محظوظين لأن أقدامهم لم

تطأ أرض نيوزيلاند وادعوا أن رجال القبائل انشغلوا بعد رحيلهم فى نهش أسيرهم الهولندى .

يذكر المستكشفون الأوربيون الأوائل روايات تثير التقزز عن عادات قبيلة الماورى سكان نيوزيلاند الأصليين خلال القرن الثامن عشر . منها أنهم كانوا يجتمعون بعد المعركة لأكل أعدائهم ، وكان الاحتفال يأخذ طابعا خاصا إذ كان المحتفى بأكل زعيم الأعداء ، وكانت وصمة عار لا يمحوها إلا الموت إذا علم أحد أفراد القبيلة أن أباه انتهى طعاما للأعداء بعد إحدى المعارك .

بعد مائة عام من محاولة تاسمان [illegible] على ساحل نيوزيلاند قتل الماورى كل بحارة سفينة بريطانية وأكلوا [illegible] . والغريب أن بعض البحارة الذين أصابهم جنون العطش فضلوا الموت على ظهر السفينة على أن ينزلوا إلى اليابسة حيث الماء يروى ظمأهم

كل ما تركه تاسمان بعد زيارته لنيوزيلاند هى الأسماء التى وضعها على خريطته للأماكن التى مر بها ، يسمى الجزر ستيتن لاند أو أرض الغضب الذى تغير بعد إلى نيوزيلاند ، وهو اسم مشتق من مكان فى هولندا اسمه زيلاند .

بعد تاسمان بأكثر من قرن وصل القبطان جيمس كوك البريطانى إلى أرض الغضب ، وقيل : إنه أول أوروبى يهبط على سواحلها ، ولم يواجه نفس المتاعب التى أفزعت تاسمان ، وتمكن من غرس علمين فى الأرض الجديدة إيذانا بضمها إلى تاج الملكة شارلوت ، وكان قد اصطحب معه مترجما من أهالى جزر بحار الجنوب ، قال للأهالى : إن أعلام بريطانيا ليست إلا علامات على التلال ، فأخذوا ينظرون إلى ألوانها بإعجاب وهم لا يعلمون أن أرض الأجداد قد أصبحت مستعمرة للأغراب القادمين من أقصى الشمال الغربى .

وعكف كوك على استكشاف قدر كبير من سواحل نيوزيلاند ، ودراسة قبائل الماورى عن كثب ، كتب عنهم أنهم يتصفون بنزعة الغضب وحدة

مزاج عالية جدا ، بدرجة أنهم يعلنون الحرب لأتفه الأسباب ، كانوا طوال القامة ، لون بشرتهم بنى قاتم ، يتغذون على جذور السرخس ، والسمك والجرذان والكلاب ، وكانوا على قدر كبير من الكبرياء ، يهتمون بمقابلة المحاربين على حلبة قتالية يولعون باقتنائها .



ولاحظ كوك أن الماورى من أكثر الشعوب ولعا بالسفر ، وبمجرد أن سمعوا عن البلاد التى جاء منها البيض أعربوا عن رغبتهم فى رؤيتها ، وسافر بعضهم إلى بريطانيا على سفن انجليزية حيث طاردتهم الروايات القديمة عن أكل لحوم البشر ، وعاد بعضهم إلى سيدنى بعد أن وجدوا الحياة جحيما فى بريطانيا ، وكان فى سيدنى مبشر اسمه مارسدن صموئيل من خريجى جامعة كامبردج ، وأصله من يوركشاير ، كان يشغل منصب رئيس أساقفة فى استراليا .

التقى المبشر بزعيم ماورى كان عائدا من بريطانيا مشحونا بالغضب لما لقيه من سوء معاملة . . وكان اسم هذا الزعيم روتارا أعطاه الأسقف كمية من القمح ، وعلمه كيف يزرعها ويحصدها ويطحنها إلى دقيق ، وكانت أول معاملة طيبة يلقاها الزعيم الماورى من رجل أبيض ، ونجح الرجل فى تغيير رأى الزعيم واكتساب صداقته .

بعد أشهر من عودة روتارا إلى نيوزيلاندا حاملا معه بذور القمح ، عزم مارسدن على اللحاق به ، وكان ذلك قرارا رهيبا لأن قصص أكل لحوم البشر كانت ما تزال شائعة على ألسنة البيض في استراليا فحاول أصدقاء مارسيدن عليه إثناءه عن قراره ، حتى لا يتحول إلى مضغ في أفواه الماورى .

أعرض مارسدن عن الإصغاء إلى أصدقائه ، وكتب يقول : إن الماورى لا يقلون نبلا بالفطرة عن أى شعب آخر ، وأنا واثق بقدرتى على التفاهم معهم ، ووضع حد للمجازر الرهيبة التى يرتكبها الطرفان النقيضان على أرض الجزيرة . . الأوروبيون والماورى إن الماورى في حد ذاتهم ضحايا ظروف قاسية ، رغم كل ما يقال عنهم.

حمل معه إلى نيوزيلاند ثلاثة خيول ، وبقرتين ، وثورا ، فتجمع حوله الأهالى بدهشة من بعيد ، وهو يهبط من سفينة ، لم يختال على صهوة جواد بحذاء الشاطئ ، ومن ورائه الحيوانات العملاقة ولم يكونوا قد شاهدوا من قبل حيوانا غير الكلب .

بمساعدة صديقه الزعيم الماورى روتارا استطاع مارسدن أن يعقد صلحا بين أكبر قبيلتين فى الجزيرة ، كانت المعارك بينهما لا تجف لها دماء ، وأمضى ليلة بطولها فى معسكر إحداهما وهى قبيلة وهانجاروا ، المعروفة بأكل لحوم البشر ، وبدلا من أن يأكلوه ، واتفقوا على معاهدة الصلح فى منتصف ديسمبر ١٨١٥ ، ولكى يحتفل بالمعاهدة دعاهم إلى الاحتفال بصبيحة الكريسماس ، وبدأ بذلك حملته التبشيرية فى نفس السنة التى انشغلت فيها أوربا فى معركة ووترلو . وبدأ الاستيلاء الاستعمارى على الأرض بعد وقت قصير من الاحتفال بالكريسماس ، حينما دفع الأسقف ١٣ فأسا ، مقابل ٢٠٠ فدان باعها الماورى له ، فبنى عليها بيوتا ومدرسة وكنيسة للتبشير ، وقال مارسدن فى ذلك : لقد خدمت الفئوس والمجارف أهدافنا التبشيرية فى صمت وهدوء .

كان مارسدن لا يفتأ يقول للأهالى : إنه يناضل ويكرس جهوده ومبانيه لتعليمهم والنهوض بهم إلى مستوى معيشة أفضل ، وكان هناك من يرون أنه دخيل تسلل إلى أرضهم ، يتدخل فى شئونهم ، ويحاول بسط النفوذ

الأبيض عليهم ، ويجردهم تدريجيا من حريتهم . . ومن لم يجب التعامل منه والعريب أن القبيلتين قد التحمتا فى حروب ضروس ذهب ضحيتها آلاف الأرواح من القبيلتين ، ولم يصب مارسدن أو منشآته بسوء ... حماية نبيلة وهانجاروا ، وقيل : إن مارسدن هو الذى أشعل فتيل الفتنة بين القبيلتين ليلهيهما بالحرب عنه وعن مخططاته الاستعمارية .

أصبح الشعب المتحارب المنقسم المتناحر لقمة سائغة ، وصارت أرضه فريسة للمغامرين البريطانيين ، الذين تهافتوا على الجزيرة يحملون على متون سفنهم الكثير ، ويبنون المستوطنات ويلقون العون من مارسدن وأعوانه . ولم تكن نيوزيلاند هدفا للمغامرين الانجليز وحدهم ، وإنما من مختلف الجنسيات الأوربية .

واحد من هؤلاء المغامرين كان فرنسيا اسمه البارون دى تييرى اشترى بثلاثين فأسا قسما كبيرا من الجزيرة الشمالية وفاجأ الحكومة البريطانية بإعلان نفسه ملكا لنيوزيلاند ، وقال ردا على المندوب البريطانى الذى جاء يخبره بأن الجزيرة ملك بريطانيا : « هذا غير صحيح . لقد جاءها تاسمان



الهولندى قبل ـ كوك ـ الانجليزى وجئت أنا لأحمى حرية نيوزيلاند »

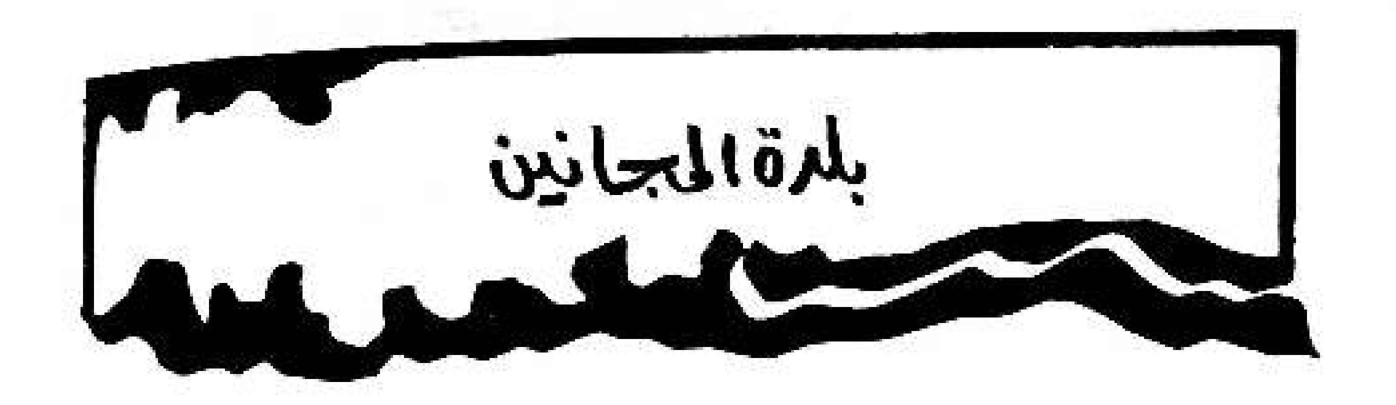
ولكى يرسخ أقدامه ، ويحقق فكرته ، ويحمى عرشه ، استقدم مائة مجرم سابق أفرج عنهم حديثا من سجون سيدنى ، وجعلهم جيشا له ، ولما نفذت أمواله وعجز عن دفع رواتبهم ، تخلوا عنه ، وسقط عن العرش أول ملك فرنسى على نيوزيلاند .

وأخيرا قررت بريطانيا أن تميط اللثام عن نواياها الدفينة للاستيلاء على البلاد التى غرس على رباها الكابتن كوك أعلامها فأرسلت الكابتن ويليم هربسون ، ونصبته حاكما عاما على نيوزيلاند من قبل التاج البريطانى كان على هربسون أن يحصل على رضاء [illegible] ، فدعا زعماءهم فى فبراير عام ١٨٤٠ فاجتمعوا فى مكان يسمى [illegible] معناه بلغة الماورى ـ المياه الباكية ـ وأخبرهم أن الملكة الشابة "[illegible]يضاء فى مدينة الضباب عبر المحيطات ، قد أصبحت حاكمتهم العظ[illegible] كانوا فى حالة من التض[illegible] والإعياء واليأس ، فانصاعوا ووافقوا على توقيع معاهدة ضم نيوزيلاند إلى أملاك الامبراطورية البريطانية .

فى سبتمبر ١٨٤١ ، بعد ١٨ شهرا من توقيع المعاهدة بنى بلدة أوكلاند وجعلها قاعدة لحكومته ، واستقدم طوفاناً من المستوطنين الانجليز ، بنوا مدينة ولنجتون فى الجنوب وسميت باسم الدوق الحديدى المشهور فى نيوبلايموث ، ونيلسون ، واستوطن الاسكتلانديون مدينة دونيدين فى الجزيرة الجنوبية ، وفيها الآن أقدم جامعة فى البلاد .

ظل هربسون حاكما لمدة عامين ونصف ثم توفى ، وقد ارتفع عدد السكان البيض خلال حكمه من ٢٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ولكن هذا العدد يعتبر قليلا بالنسبة لبلاد واسعة مثل نيوزيلاند وعلى مر الأيام تهافت عليها الأوروبيون طمعا فى الأراضى الخصبة ، وبين الحين والحين كان الماورى ينتفضون فى ثورات عارمة ، لكنها سرعان ما كانت تنطفىء وتخبو .





« انظروا . . . لى جناحان أستطيع بهما الطيران » .

قالها الطيار المريض نزيل المستشفى ، وفرد ذراعيه ثم قفز من النافذة بالطابق الثالث ، قبل أن تتمكن الممرضة من منعه ولم يكن هذا الرجل إلا واحداً من مئات الضحايا لمرض غريب اجتاح بلدة فرنسية صغيرة ، وأصاب السكان بالجنون .



عاد الدكتور ألبرت جاباى إلى بلده بونت سانت اسبريت ، وراح يجول فى شوارعها بادى السرور بعودته ، لم تكن بلدة فيها ما يثير أو ما يميزها على سـواها ، كانت كأى بلدة أخرى من شبيهاتها فى جنوب فرنسا ، تعداد سـكانها حوالى ٥٠٠٠ نسمة ، وبها فندق وفرن وجراجان ، ومستشفى صغير ، ولم يقع بها حادث يجعل لها تاريخا أو شهرة من أى نوع ، حتى السياح الذين كانوا يمرون بها بعد عبور الجسر على نهر الرون لا يجدون فى منظرها ما يثير فضولهم أو يغريهم بالتسكع . وسواء كان منظرها هابطا أو غير ذلك ، فإن الشمس تشرق فى تلك البلدة ، وهذا هو كل ما يهم الدكتور جاباى . . . كان قد ذهب مع أسرته خارج البلدة فى أجازة ، وهناك هطل المطر مدرارا بدرجة أنه قطع الإجازة بعد أسبوع ، وعاد إلى البلدة فى أغسطس ١٩٥١ يذرع شارع بولفارد جامبيتا ، وأشعة الشمس تعيد الدفء إلى رأسه ، وتوحى إليه بفكرة العودة إلى العمل . وما كادت قدماه تسيران فى ممشى المستشفى الصغير ، حتى فوجئ الدكتور جاباى بصيحة تطرق أذنيه « ألا تصدقون أنى طائر ؟ . . . انظروا هأنذا أستطيع الطيران » . ورفع الطبيب ناظريه إلى مصدر الصوت ، فإذا برجل يلوح بذراعيه كما يطير النسر من نافذة فى الطابق الثالث . . . عرفه الطبيب فى الحال فقد كانت مساحة البلدة صغيرة بما يتيح لكل سكانها أن يعرف بعضهم البعض شخصيا بالاسم أو بالشبه . إنه جوزيف بوش ، ذلك الطيار السابق وكان قد أدخل المستشفى ذلك اليوم يشكو من ضيق شديد فى التنفس ، وظواهر مرضية خطيرة ، ويبدو الآن وكأنه فقد عقـله وهو يصيح « ألا تصدقون أنى أستطيع الطيران ما عليكم إلا أن تشاهدونى » . وبكل قوته ، أفلت الرجل المريض من أيدى الممرضات ، وقفز من النافذة ، وعلى الأرض سقط كالحجر ، يصيح صيحات المنتصر ، وتكسرت عظام ساقيه ، على مرأى من الدكتور جاباى الذى راعه أن ينتصب المريض المحطم على قدميه ، ثم يعدو حوالى ٥٠ مترا بكل ثقله على عظامه المكسورة ، قبل أن يلحق به موظفو المستشفى ويحملوه إلى حيث كان .



ابيض وجه الطبيب ، وتمالك نفسه ثم جرى خلف المسكين ، وكان من بين من حملوه . سألهم : ماذا جرى للرجل ؟ قالوا : لقد فقد عقله منذ ساعات قلائل . وقالت إحدى الممرضات بصوت مضطرب : إن بوش ليس وحده ، وإن المستشفى استقبلت مثله خلال الساعات الماضية ، كلهم أصيبوا بالجنون .

غضب الدكتور جاباى ، وزجر الممرضة قائلا : هذا هراء . . تمالكى نفسك أيتها الممرضة . . . ومضى يقرع بخطواته ممرات المستشفى ويدلف إلى قاعاتها ، ولم تمض دقيقتان حتى أدرك بنفسه أن الممرضة لم تذكر سوى الصدق . . . الرجال والنساء والأطفال يصرخون بعبارات تنبىء عن وهم مخيف بينما كل أفراد الإدارة والخدمة بالمستشفى يحاولون بكل جهد كبح جماحهم ، وظهر المشهد كأن المرضى يعايشون كابوسا رهيبا ، ويعانون آلاما مبرحة تجعلهم يفضلون الموت ، بل أن الممرضين والممرضات كانوا يعربون عن رغبتهم فى الانتحار كى لا يروا ذلك المشهد الأليم .

وصف الدكتور جاباى مسكنات للمرضى ، وهو يشك فى مقدار نفعها وعجز عن إجابة الأسئلة التى تلقاها من كل جانب : أى مرض هذا يا دكتور ؟ ماذا حدث فى البلدة ؟ . كل ما يعرفه الدكتور جاباى أن وباء جنونيا اجتاح البلدة لسبب ما يجهله ، وعليه أن يكتشف هذا المرض وذلك السبب ، وعكف الليلة بطولها فى محاولة مضنية [illegible] ، ويحاول أيضا



[illegible] مرشاد ، وترك أصابعه تقلب صفحات المراجع [illegible] يربط بين مضامين السطور بحثا عن شىء [illegible] خلفية [illegible] تصف [illegible] من شىء قرأه قبل [illegible] الحوادث المرضية المشابهة التى ظهرت فى [illegible] صيف ذات

طابع دينى منطوية على نفسها أو تلك المعزولة داخل أسوار ، وفيها ظهر وباء جنون مماثل ، جعل الناس يجرون وهم يصرخون فزعا ويتوهمون أن أشباحا تطاردهم وتحاول ابتلاعهم ، فى عصر كان الجهل يطبق فيه على عقول العامة ، خاصة فى أوربا المتأخرة آنذاك أما الطب الحديث فقد فسر ذلك المرض بالتسمم الأرغوتى . واعتصر الطبيب ذهنه بحثا عن حلقة ما تربط بين ما أسعفته به الذاكرة على هدى قراءاته ، وبين ما يحدث فى بلدة بونت سانت اسبيريت . . . الأرغوت فطر يظهر على القمح أو الجوادار إذا أسىء تجفيفه وكان من المعروف أن آكل هذه المحاصيل المصابة يصبح فريسة تشنجات وهلوسة ، وأرق ، وشعور متوحش بالاحتراق . . . وبقدر ما تذكر الدكتور جاباى فإنه لا علاج لتلك الحالة إلا بدواء الزمن .

شعر الطبيب أنه توصل إلى حقيقة الداء فقد ترددت الشكاوى مؤخرا عن الخبز ، وألقى الخبازون بالتبعة على الدقيق الموزع من اتحاد موبر - المنظمة التى توزع الدقيق على نطاق واسع وتزود به الخبازين فى جميع أنحاء فرنسا - وكان الدقيق فى الآونة الأخيرة داكنا وغير صحى وتأكد الطبيب أنه ملوث بطريقة ما . توصل الطبيب إلى قرار بأن يعالج مرضاه بالطريقة المحددة للمصابين بالتسمم الأرغوتى ، وأن ينظم نقلهم فى الحال إلى مستشفيات الأمراض العقلية فى نيس وافيجنون ، ومع نقلهم فهناك موظفون يجيدون - على الأقل - الحيلولة بين المرضى وبين إلحاق الضرر بأنفسهم عن طريق العنف الجنونى لكن مكالمة هاتفية وضعت نهاية لهذه الفكرة ، لأن القانون لا يسمح لأحد بدخول مستشفيات الأمراض العقلية بدون أن يثبت جنونه قانونيا ، وهذا يتطلب إجراءات عويصة تستغرق وقتا طويلا .

عاد جاباى آسفا يائسا إلى قاعات المرضى وقد أيقن أن عليه العبء وحده . وجال بينهم وهم مقيدون فى أسرتهم يصرخون طالبين النجدة والإنقاذ من نار يتوهمون أنها تحرقهم ، وأن مخلوقات سخيفة تطاردهم وراقب الطبيب من نافذة مكتبه أشعة الفجر تغطى أسطح البيوت ، وأخذ

يفكر فيما عسى أن يحمله الغد فى طياته من مفاجآت . بعد قليل خرج إلى الطريق ، وفى المنعطف رأى شابا بدأ يصرخ فجأة ويستنجد بالناس من نمور تهجم عليه وتنهش لحمه . وشاهد رجلا مسنا يشكو من أنه لا يستطيع إيقاف بدنه من إرسال اشارات لاسلكية وجاءه سوفيت صاحب الجراج الذى كان مغرما بمشاهدة الأكروبات فى السيرك المحلى . . جاءه مفعما بثقة فى النفس موهومة ، وأخبره أنه يستطيع تقليد البهلوان حينما يمشى على السلك ، ثم اندفع وتسلق سياج الجسر عبر نهر الرون ، ولولا أن شرطيا شجاعا لحق به وأنزله . لم يكن العنف مظهر كل المصابين . . . جلس أحدهم يكتب قصيدة شعرية وأمضى فى كتابتها ساعات تلو الأخرى يتوهم أنه يقرض الشعر ، وآخرون تخيلوا أنهم يلتهمون أطعمة شهية فى وليمة لا تنتهى ، وغيرهم جلسوا يتأملون مناظر رائعة الألوان لا وجود لها ولا يراها غيرهم .

بطرق أو بأخرى حاول الدكتور جاباى أن يتعامل معهم ، ونظم فرقا من المتطوعين لمساعدة موظفى المستشفى المنهكين ، وكان عليه أيضا أن يستقطع من وقت راحته النادر ما يكفى لتخفيف قلق أهالى المرضى . وفضت السلطات القريبة مد يد العون إلى الطبيب فطلب باريس هاتفيا واستطاع أن يقنع موظفا حكوميا مرموقا بضرورة عمل شئ . . نجحت مساعيه وصدرت الأوامر فزودوه برجال شرطة ومساعدى أطباء وأطباء ومواد طبية ووحدة من الجيش رابطت فى البلدة الموبوءة فتنفس الدكتور جاباى الصعداء وأيقن أنه لابد أن ينتصر فى حربه ضد المرض .

ظلت نار هذا المرض تتأجج فى البلدة معظم أيام الشهر حتى بلغت نهايتها ، ثم بدأ أغلب المرضى يستردون وعيهم ، واستطاعوا أن يستعيدوا حياتهم الطبيعية من جديد ، وبالرغم من أن بعض هؤلاء الذين جرحوا أنفسهم خلال فترة جنونهم ، حملوا آثار تلك الجراح معهم حتى وارتهم القبور . واستمرت دراسة هذه الحالة سنوات فيما بعد ، وأجمع المسئولون

على أن أهالى بولت سانت اسبيهت كانوا تحت تأثير عقار هلوسة من نوع ما تناولوه ضمن دقيق - اتحاد موبر. وبدأ الوباء فى التلاشى بنهاية شهر سبتمبر ، واسترد الناس عقولهم ، حتى أنهم لم يعودوا يفكرون فى المستقبل إلا بالقدر الذى يسعدهم . أما الدكتور جابلى فلم يكن يشعر بشئ بعد الشهر الرهيب سوى الرضا عن واجب أداه تجاه بلدته ولم يخيب ظنها وقت الضرورة ولما سئل عن المكافأة التى تسعده ، قال : لا شئ سوى أن أنام الليل طوله نوما عميقا هادئا خاليا من الكوابيس .





اكتشف أحد المغامرين الأوروبيين مملكة مفقودة للنساء ، السيطرة فيها للمرأة وما على الرجل هناك سوى الطاعة والامتثال لأوامر حواء دون مناقشة أو جدال . ويقول هذا المغامر : إن النساء من قبيلة مهنارو تستطيع الواحدة منهن أن تتزوج عدة رجال فى آن واحد وتسيطر عليهم جميعا بالقوة ، هذا المغامر هو الفرنسى ميشيل بيسيل وقد استطاع اكتشاف هذه المملكة التى يعيش الناس فيها كما كان يعيش إنسان العصر الحجرى بمنعزل فى جبال الهيميلايا يقع على ارتفاع ستة عشر ألف قدم . ويقول بيسيل : لقد شاهدت بعينى النساء يقمن بضرب الرجال بوحشية فى اجتماع عام ، والنساء هناك خشنات ، قاسيات جدا ، والرجال فى منتهى الخنوع والانكسار ، إن ما رأيتــه مجتمع تحكمه المرأة التى مهما بدا لك أنها جميلة ، إلا أنها خشنة جدا وقاسية ولا يملك الرجل أمامها إلا أن يرتعد ويرتعش ، إذ ليس أمامه من خيار سوى القبول بسيطرة المرأة وحكمها مهما كان جائرا ، أو مغادرة البيت ، والعيش منبوذا فى الجبال .

وفى الكتب الصينية القديمة تعرف المنطقة التى أشار إليها المغامر الفرنسى بأنها « مملكة النساء » وقد قضى بيسيل ستة أشهر فى هذه القبيلة وهو مقتنع تماما بأن أصلها آرى أو هندى أوروبى وهو الأصل الذى انحدر منه الأوروبيون ، ويقول بيسيل الذى تخرج من جامعة أوكسفورد : إنه أمضى ثلاث سنوات وهو يدرس الأساطير المنتشرة فى قبيلة مينارو وأنه أمضى عدة أشهر وهو يتنقل فى الجبال الوعرة حتى وصل إلى منطقة دانسار على الحدود بين الهند والباكستان حيث تقيم قبيلة مينارو التى تكون « مملكة النساء » والتى يبلغ عدد أعضائها ٨٠٠ شخص لهم عاداتهم المعيشية



المكتشف الألماني بيسيل

امرأة من مملكة النساء المفقودة

المميزة ، وقد سمع هتلر بمملكة النساء هذه فأرسل مساعديه وكشافته للعثور على تلك المملكة لإيجاد ما كان يصبو إليه ، وهو مجتمع آرى نقى ، إلا أن النازيين لم يصلوا إلى تلك المملكة ولم يستطيعوا اختراق الجبال العالية والوديان السحيقة المحيطة بنهر أندوس .

لقد دخل بيسيل منطقة دانسار وهو يلبس لباس رجل من مينارو ودهن ذقنه بعصير الجوز ، وعندما اقترب من هؤلاء الناس وجدهم يعيشون عيشة الإنسان الحجرى ، وقد شاهد هناك دروسا فى الرسم كما كان يتم فى فترة ما قبل الميلاد ، وكذلك شجرة مقدسة للحياة ، واعتقاد الناس الجازم فى الجن[1] والخرافات والأساطير ، وكذلك عادات الدفن القديمة التى كان يقوم بها الآريون القدماء . ويقول بيسيل : إن هؤلاء الناس ينحدرون من سكان شرق الأمازون الذين ورد ذكرهم فى الأساطير اليونانية ، ويتصفون ببشرة شفافة ناعمة ، وعظام الوجنة لديهم بارزة ، ويشبهون الأوربيين إلى حد كبير ، بحيث يمكنك تمييزهم عن الهنود من مسافة ...

(١) أثبت الإسلام وجود الجن ، لكنه حارب الخرافات والأساطير التى تتعارض والعقيدة السليمة ، وقضى عليها .

ويقول بيسيل لقد اكتشفت أثناء إقامتى مع هذه القبيلة أن أفرادها لا يغتسلون سوى مرة واحدة فى العام ، وهم فى العادة يطهرون أجسامهم بدخان خشب شجر العرعر(٢) . وقد وضع بيسيل أسراره عن المملكة المفقودة فى كتاب أسماه « ذهب النمل » . لكن لماذا ذهب النمل ؟! يقول بيسيل : إن شعب مينارو يعرفون سرا أو لغزا واحدا لأكثر المخلوقات غموضا فى الأساطير وهو النملة العملاقة ، التى كانت معروفة لدى الفرس القدماء والتى كانت عندما تختبئ فى جحر فى الرمال ، تقذف بأكوام كبيرة من الرمال إلى أعلى ، أى إلى سطح الأرض ، وكان يوجد فى هذه الأكوام من الرمال أغلى المعادن وأنفسها ، وهو الذهب الأصفر الرنان .



(٢) جنس أشجار من الصنوبريات فيها أنواع تصلح للأ.مراج والتزيين.



كان هذا هو الاسم المرعب الذى يطلقه رجال القبائل على صحراء جوبى ، وعلى الرغم من التحذيرات الرهيبة ، أصر نيكولاى بريجيفالسكى بعناد على أن يجتاز القفار التى لم تطرقها قدم إنسان من قبل .. ويعبر نيكولاى برجيفالسكى يعبر مدينة الما اتا العتيقة ، لم يتبع الطرق التى يتوقع الناس أن يسلكها ضابط من ضباط الجيش الروسى ، وبدلا من المشى فى الشوارع العريضة النظيفة قرب الثكنات ، عمد إلى شق طريقه فى متاهات الشوارع الضيقة المتعرجة ، المؤدية إلى السوق القديم . وكان كلما امتد المسير ، ازداد ضيق الطريق ، ثم وجد نفسه يتجه إلى غايته وسط كتل من اللحوم البشرية المتحركة ، تتدافع وتتناكب ، تفوح منها رائحة العرق ويصبح التقدم إلى الأمام مشكلة صعبة ، فكان نيكولاى يدفع نفسه إلى الأمام ، بين زحام الفلاحين الصينيين ، والباعة الجائلين التتبيين ، والتجار الأتراك ، تلفح وجهه أنفاس الوجوه من مختلف الأجناس والنحل المألوفة وغير المألوفة ، لأن مدينة « الما آتا » كانت عاصمة قازاخستان أقصى جنوب شرق امبراطورية روسيا القيصرية ، ولم تكن الصين تبعد عنها كثيرا ، وكانت قوافل الجمال تخترق البرارى الموحشة وتعبر وسط آسيا حاملة التجار وبضاعتهم من منغوليا ، وهضبة التبت وما وراءهم . وكان هؤلاء التجار هم بغية نيكولاى ، وكان أمله هو الاجتماع بهم . لم يكن يبغى التعامل معهم بالبيع والشراء ، وإنما لأمر آخر خطير . كان نيكولاى من فوق مبانى ثكنات الجيش ، يرى قمم جبال تيان شان متوجة بالجليد ، ومن ورائها صحراء جوبى القاحلة ٣٦٠٠ ميل من المجهول ، لم يعبرها أحد من قبل

نيكولاى على أن يقتحم المجهول ويقهر صحراء جوبى . وفكر فى أن هؤلاء التجار الذين يتخذون لهم دروبا حول صحراء جوبى فى طريقهم إلى [illegible] إنما قادرون على مساعدته فى رسم خطة لرحلته الخطيرة .

وصل نيكولاى فى النهاية إلى المكان الذى قصده [illegible] وق التقسيم فى



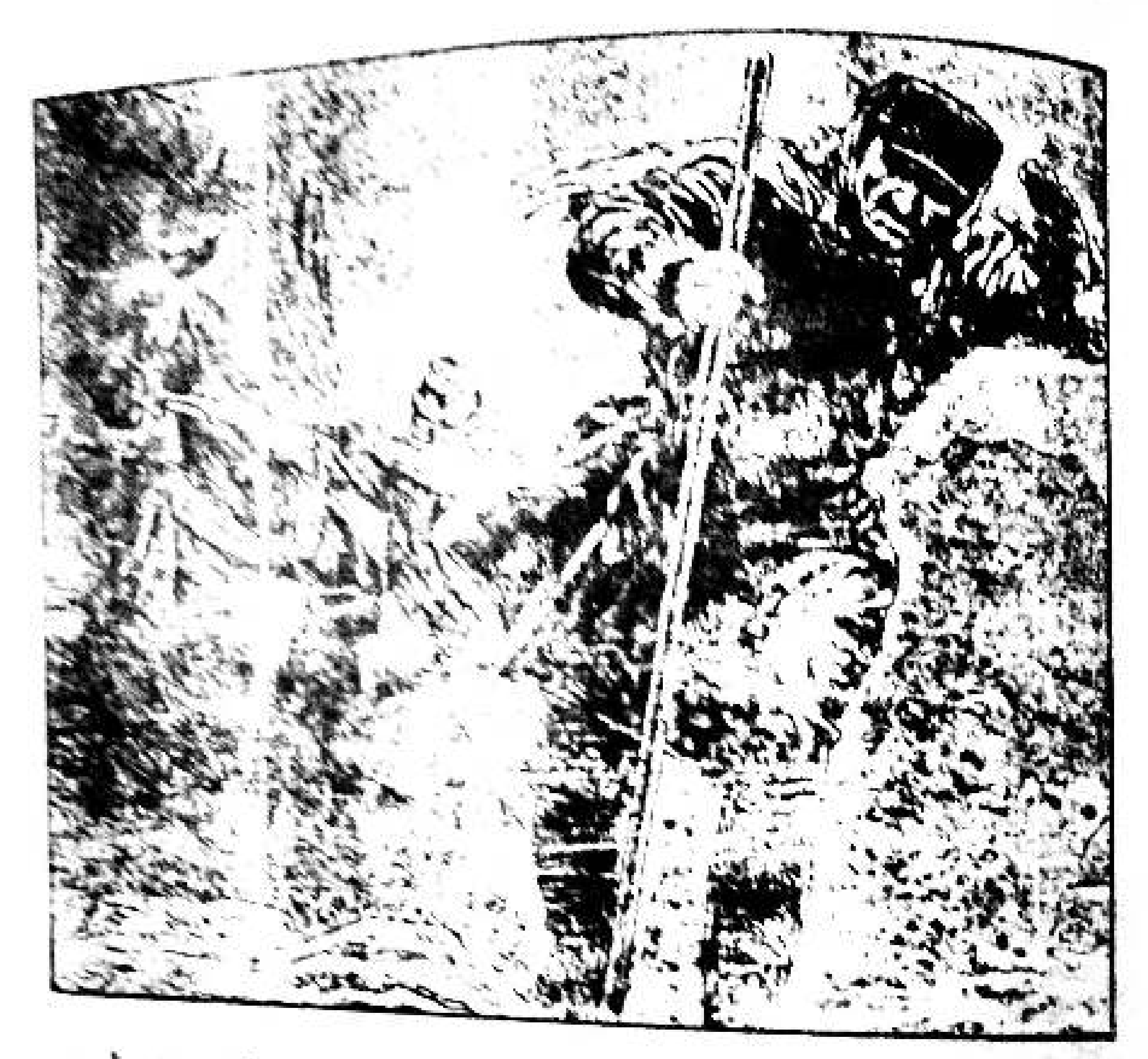
أقصى المدينة العتيقة . وكان الناس منهمكين فى ارتشاف الشاى وتبادل أحاديث الصفقات ، فلم يعره أحد أدنى اهتمام . جلس وسط زحامهم دقائق قليلة يستمع إلى أمواج متضاربة من الصياح والفخفحات[1] ثم استدار إلى مجموعة من التجار جلست بالقرب منه ، وسألهم عما إذا كانوا على استعداد لمساعدته فى اجتياز الصحراء . وما أن تفوه بعبارته حتى كان لها وقع الصاعقة على سامعيها ، توقفت كل الأحاديث برهة ، ثم بدأ التجار واحدا بعد الآخر يحذرونه من الاقتراب من صحراء الهلاك . قال الأول إنها

(١) فخفخ : أكثر الكلام فهو فَخْفاخ ، وفخفخ : أطلقه بحة فى صوته .

صحراء مشئومة . إنها « وكر الشيطان » . وقال آخر : « الأبالسة فيها على شكل أشباح من الغبار ، ورمال تغنى ، وعفاريت تمرح وتصرخ ، من غروب الشمس حتى شروقها » . ارتعش عدد من الرجال ، وأومأ آخرون برءوسهم تصديقا لما قيل . وحاول نيكولاى إقناعهم بأن ما يتوهمونه ليس إلا صفير الرياح لكنهم جميعا أصروا على أن صحراء جوبى وكر تجتمع فيه كل الأرواح الشريرة . لم يفت ذلك من عضد نيكولاى ، وازداد تصميما على أن يكتشف مجاهل تلك الصحراء .

كان القرن التاسع عشر قد شهد سلسلة متصلة من عمليات الكشف الجريئة أسفرت عن اجتياز الصحراء الكبرى ، ومنابع أنهار وسط أفريقيا ، وأماكن كثيرة فى آسيا والأمريكتين ، ولم تبق إلا صحراء جوبى لم يقهرها أحد ، واستقر فى أعماق نيكولاى اعتقاد راسخ بأنه على موعد مع هذا الاكتشاف وأنه قدره المحتوم . **نيكولاى برجيفالسكى** كانت مواهبه واستعداداته تفصح بجلاء عن أنه سيكون مكتشفا ، فقد ولد عام ١٨٣٩ فى « سمولنسك » ، وأمضى عدة سنوات فى الجيش القيصرى الروسى وتعلم الجغرافيا فى الكلية العسكرية ، وذرع دروب روسيا ومنغوليا كلها فى رحلات عسكرية ، فأصبح مستعدا لرحلة أخرى أكبر إثارة وجسارة . وكتب نيكولاى إلى أكاديمية العلوم الروسية طالبا مساعدته فى تخطيط وتمويل رحلته ، فكاد يطير من الفرح حينما استجابت الأكاديمية لطلبه فاستأجر عربة يجرها بغل حملها أدواته وحاجياته .

بدأت الرحلة فى جو صحو . واتجه نيكولاى إلى الشمال ليطوف الصحراء قبل أن يعبر جبال « تيان شان » ، دون أن يعرف أو يحدد ماذا عساه فاعلا بعد ذلك ، لأن أحدا لم يقرب هذه الأنحاء ، وكان على نيكولاى أن يعتمد على إحساسه ثم الحظ . وقبل أن ينصرم اليوم الأول من أيام الرحلة ، أيقن الرجل أن صحراء جوبى عدو رهيب عنيد بالفعل . ذلك أن ريحا شمالية عاتية أطاحت بحاجياته وأدواته ، وكأنها إنذار شديد اللهجة من صحراء جوبى لزائر غير مرغوب فيه . وجد نيكولاى نفسه ورفاقه وسط سحابة من رمال دقيقة ثائرة لاسعة تحشو الخياشيم وتؤذى العين . وانخفضت



الحرارة إلى ما تحت الصفر . فاضطروا إلى تمضية الليلة الباردة فى العراء
دون أن يطرق النوم أجفانهم . وفى اليوم التالى استأجر عددا من الحمالين
وانطلق يعبر جبال « تيان شان » . تحقق من أن المهمة أكثر من مستحيلة .
فالدروب وسط الجبال لا تتسع لأكثر من طابور من الماعز ، والصخور تنهار
تحت أقدام الرجال ، والرياح حادة كأنها نصال السكاكين تنفذ من سترات
الرجال المصنوعة من فراء الخراف . واستجمع نيكولاى كل مهارته فى فن
القيادة ليدفع الرجال الفزعين المترددين على التقدم إلى الأمام . وبعد جهد
جهيد أشرفت القافلة على سهل بدا لهم من فوق الجبل أخضر يانعا . فعرفوا
أن مشقة الصعود قد انتهت وآن لهم أن ينحدروا بجهد أقل . أمضوا الليلة
على الجانب الآخر من قمة الجبل ، وأوتوا بماء رقراق من غدير جبلى ،
بينما كان نيكولاى يحاول أن يخرق الآفاق ببصره ، ليرى على بعد أميال
مساحات لا حد لها من أرض عبوس داكنة . وبعد يومين وصلوا إلى أرض

مفروشة بحصى أسود يمتد إلى ما وراء البصر ، وازداد الشعور بالخطر حينما وجدوا أنه أملس لا تستقر أقدامهم عليه إلا بصعوبة . وكان نهار الصحراء شديد الحرارة ، وليلها شديد البرودة ، والرياح بسخونتها نهارا وبرودتها ليلاً لا تهدأ . لا آبار مياه ، ولا أثر لنبات أو حيوان . لا شئ إلا العدم .

وبينما كان نيكولاى راقدا فى الليلة التالية فى خيمته ، والرياح صرصر عاتية ، سمع صوت غيلان الصحراء ، من بين نواح العواصف وزئيرها ، تقول له: ـ وهو نصف نائم ـ « عد من حيث أتيت . إنها بلاد الشياطين » ، فهب الرجل من فراشه ، معللا النفس بأنها لابد أوهام الخوف أولت له أصوات العواصف ، لكن الأصوات ظلت تتردد فى أذنيه بوضوح ، فلم ينم تلك الليلة . وفى صباح اليوم التالى شاهد بعينيه إحدى الرؤى التى وصمها بالوهم حين قصها عليه التجار بالخان . رأى قافلة تعبر الطريق أمامه بوضوح عن بعد . واستطاع أن يميز تفاصيلها بدقة . ويرى الجمال والحمالين والتجار ، ويفرق بين من كان منهم صينيا ومن كان تركيا ، نفس المنظر شاهده رجاله ، فصاحوا فرحا ، ولوحوا لرجال القافلة الأخرى بالتحية . وفجأة اختفت القافلة بأكملها ، ولم تترك على الرمال أى أثر لقدم إنسان أو خف جمل أو عجلة عربة . وأسفرت رحلة الأسابيع التالية عن مناظر غريبة مختلفة ولكنها سارة إلى حد ما ذلك أن قافلة نيكولاى وصلت إلى واحة « **تورفان** » ، وهى عبارة عن قرية خصبة ممتعة ، تغذيها المياه الناشئة عن ذوبان الجليد والمتحدرة من قمم الجبال خلال مجارٍ جوفية تحت الأرض تنتهى فى الواحة بينابيع متدفقة ، أتاحت لأهالى تورفان زراعة الكروم والبطيخ والخوخ الذى أكل منه نيكولاى ورجاله . و « جبال النار » تتوهج حمراء عندما تنعكس عليها أشعة الشمس وبالقرب منها تمتد أحواض الملح مغطاة بالمسحوق الأبيض الذى يغطى فخاخا من الطين المتحرك . ومهما تكن المخاطر التى صادفتها قافلة نيكولاى ، فإنهم فى النهاية اخترقوا وكر الشيطان ، وتحولت أغانى الرمال ونواح العفاريت إلى معزوفة الزهو والانتصار ، حينما قهر نيكولاى وقافلته صحراء جوبى لأول مرة فى التاريخ .

وقد شجع « نيكولاى » نجاحه فى رحلته هذه على القيام بأربع رحلات تالية فى قلب كينيا الوسطى . وفيها نصب خيمته على ارتفاع ١٠،٠٠٠ قدم من شواطئ بحيرة « كوكو نور » ، وهبط إلى المياه الزرقاء المـالحة ، ثم صعد الجبال البيضاء التى خلفها ، واكتشف الحصان البرى الأبيض الذى يحمل اسمه الآن .



طوفان لاينماوث

لم يشـــهد غرب انجلترا طوفانا أشـــد مما منى به فى أغسطس عام ١٩٥٢ ، وفى اليوم الخامس عشر من الشهر بلغ الطوفان مداه . كانت الأمطار تهطـــل مدرارا طوال فترة ما بعد الظهر ، ثم أصبحت سيولا جارفة قرب المساء ، هدير الرعد يصم آذان سكان مدينة ديفون الذين ذهبوا لتمضية عطلة نهاية الأسبوع فى مروجها ، ويجهلون أن قصف الرعد فوق تلال اكسمور ، فى أقصى الجنوب كان بمثابة نذير بما تخبئه لهم الطبيعة ، ولا يدرون أن منطقة لاينماوث ستعانى أسوأ كارثة طبيعية رهيبة لم تشهد بريطانيا مثلها .

ظل رجال الأرصاد الجوية لثلاثة أيام سابقة يعلنون عن منخفض جوى قادم من المحيط الأطلسى ، يتوقعون أن يتحرك بثبات نحو الشرق عبر الجزر البريطانية ، لكنه عندما أصبح فى سماء غرب البلاد ، فوجئ برياح شمالية شرقية اصطدمت به وأوقفت مسيرته فأفرغ حمولته من الماء مطرا كالأنهار ، أغزرها كان من نصيب هضبة فى الطرف الغربى لاكسمور ، وفى موقع غير بعيد عن هذه المنطقة ترقد طبقة من الحجر الحديدى ، منعت الماء من التسرب إلى الأرض ، فلما غمرها المـــاء خلال ما بعد الظهر والليل ، لم يبق أمامه إلا مسلك واحد خلال الغدران الموجودة على حواف الهضبة التى أصبحت كخزان هائل ، أطلق مارد الماء من عقاله ، تهبط السفوح كما الشلال الهادر ، تجرف كل ما يعترض سبيل تقدمها نحو البحر فى الشمال بما فى ذلك لاينماوث غربا . لم تكن الغدران والسواقى من السعة ، بحيث تستوعب شدة تيار الماء ، مما أدى إلى فيضانها تكتسح الضفاف ، وتقتلع الأشجار من جذورها ، وتسوق الصخور فى طريقها . وفى نفس الوقت تلا

نهر لاين الشرقى شرقا بالماء ، حتى الفيضان ، وعند ملتقى الفيضانين تقع مدينة لاينماوث ، حدث كل شئ بسرعة دون سابق إنذار أو استعداد وقائى من السلطات أو من الأهالى ، فكانت ضربة قاضية .

اكتسح الفيضان البيوت ، ودمرت الصخور العاتية المتساقطة من التلال أقواها بنيانا ، وألقى السيل السيارات فى البحر ، وراح ضحية هذه الكارثة أناس كثيرون فقدوا حياتهم أو أصيبوا بجراح ، أو حملهم التيار إلى البحر واعتبروا فى عداد المفقودين ، وأصبح كل سكان المنطقة بلا مأوى . وكانت هذه الكارثة بمثابة درس قاسٍ للسلطات ، فخصصت الجزء الأكبر من الإعانات والتبرعات المحلية والدولية التى انهالت عليها بسخاء ، لا فى علاج جراح المنطقة فحسب ، وإنما فى اتخاذ خطوات للحيلولة دون تكرار الكارثة، أو التخفيف من ويلاتها إذا تكررت . من هذه الخطوات ما قامت به من توسيع الغدران والقنوات وتقوية الجسور والشطآن ، ووضع قيود وشروط تحدد أماكن وبناء المساكن ومواصفات متانتها .





ما من كيميائى داعب البواتق والمعوجات منذ أقدم العصور ، إلا راوده حلم تحويل عنصر معدنى إلى ذهب ، وعلى الرغم من أن الحلم الثرى المتألق ظل مستحيلا مستعصيا عليهم جميعا ، إلا أن رجلا استطاع أن يجعل منه حقيقة مجسمة . . من هنا توطدت علاقة فردريك ملك بروسيا بالكيمائى ذى الوجه الشاحب ، الذى أطلق على نفســه اسم الكونت كاتانو ، والذى كان يتحدث الألمـانية بلكنة إيطـالية ، ولا يعرف أحد من أين جـاء .

قبل أيام قلائل ، وفى ٢٠ مارس ١٧٠٥ على وجه التحديد كان الرجل قد حول كمية من الزئبق إلى ما لا يمكن تمييزه عن الذهـب الحقيقى ، تحت بصر الكيميائى الدانمركى المشهور دييبل ورغم أن دييبل راقب بيقظة التجربة من بدايتها إلى نهايتها إلا أنه أعرب صراحة عن شكه فيما ادعاه « كاتانو » ، وجاهر بعدم اقتناعه ، وإن لم يستطع تقديم إيضاح لأسباب شكه . وصل نبأ الرجل الغريب إلى أسماع الملك فردريك ، فأمر بتجربة يقيمها « كاتانو » خصيصا أمام الملك شخصيا ، ليتأكد من صحة تجربته . وحتى لا يستخدم الكيمائى الغريب أية خدعة ، أصر ابنه الأمير على أن يستعمل « كاتانو » فى تجربته الملكية أجهزة تقدمها له مختبرات الدولة ، وأن يتم فحص المعدن الناتج فى الحال ، ولا يسمح لكاتانو باستعمال شئ من عنده ســوى المسحوقين السريين ، وكان أحدهما أحمر والآخر أبيض . ولشدة ما كانت دهشة الأمير حينما رحب كاتانو بالحيطة المشددة ولم تختلج فى وجهه عضلة بحركة اعتراض ، وتحدد يوم الاختبار ، ثم اجتمع

رجال البلاط ليشاهدوا كاتانو وهو يعرض تجربته أمام الملك .

بدأ التجربة بتسخين كمية من الزئبق إلى درجة الغليان ، فتصارعت الفقاعات على سطح المعدن السائل ، وتصاعد من البوتقة دخان ، وهنا أضاف الرجل إلى المعدن المغلى قدرا طفيفا من المسحوق السرى الأحمر ، وقلبه جيدا بيد الخبير الواثق ، ثم أطفأ اللهب وترك البوتقة لتبرد ، وبعد نصف ساعة أفرغ محتوى البوتقة فإذا هى سبيكة معدن وهاج فى لون التبر الخالص ، أثبت الاختبار أنه ذهب حقيقى . وفى التجربة الثانية ، استخدم الكونت كاتانو مسحوقه السرى الأبيض ، خلط به الزئبق المغلى ، وبعد التبريد اتضح أن الزئبق تحول إلى فضة لا فرق بينها وبين محصول المناجم . أعجب الملك فريدريك بالكونت كاتانو ، وأفسح له مكانا بين رجال البلاط ، فلمع اسمه فى المجتمع البروسى ، حيث وعده بأن يجعله أغنى ملك فى العالم ، وبأنه لن يكف عن إنتاج المعدن النفيس بكميات تضيق بها خزائنه . وذهبت كل جهود الملك سدى فى سبيل إقناع كاتانو بكشف النقاب عن سر المسحوق العجيب . تكدرت مشاعر الملك تجاه كاتانو من فرط جحوده ، وخامرته فيه الظنون ، فأوفد إلى الخارج من يتقصى ماضيه . وأكدت التحريات أنه « كونت » زائف ، لا ينحدر من أسرة نبيلة ، وما هو إلا ابن فلاح ايطالى بسيط ، اشتغل فى مرحلة مبكرة من حياته صبيا فى حانوت صائغ ، ولما فشل فى سبر أغوار المهنة هجرها ، واتجه إلى الشعوذة ، فأصبح ساحرا دجالا جاب أرجاء إيطاليا كلهـــا ، يعرض ألعابه فى الأسواق والمعارض .

استطاع كاتانو أن يجعل من نفسه نجما اجتماعيا فى بروسيا بعد وصوله إليها بأسابيع قليلة عام ١٧٠٥ ، ولم تمض ثلاث سنوات حتى فقد حب الملك فردريك ، فاعتقل ، وقدم إلى المحاكمة ، حيث اعترف بأصله المتواضع ، ومهنته المهجورة كصبى صائغ ، واحترافه السحر كمصدر لقوته ، لكنه أنكر بشدة استخدام أية حيلة غير مشروعة فى صناعة المعدن النفيس ، ومن قبيل الدفاع عن نفسه ، وإثباتا لحنكته العلمية فى الكيمياء ، حول



الزئبق إلى فضة أمام لجنة قضائية من فطاحل علماء بروسيا . مرة أخرى
وجد كاتانو نفسه مكرما معززا فى قصر الملك . وعاد يكرر عزمه على إثرائه
بإنتاج الذهب الوفير ، وحدد الملك يوما لإجراء عملية صناعة الذهب على

كان يوم ٢٣ نوفمبر ١٧٠٨ حدث الناس فى كل مكان قبل بزوغ فجره بعدة أسابيع . وما أن لامست الشمس نوافذ القصر الملكى بأول خيوطها ، حتى تبين للجميع أن كاتانو اختفى وكأنما تبخر ، وجد الحراس فى البحث عنه حتى اهتدوا إليه متخفيا فى فراكفورت ، فأعادوه إلى بروسيا مقيداً فى الأغلال ، حيث حكم عليه بالإعدام شنقا بحبل معدنى موشى بالذهب الذى صنعه ، جزاء له على خداع الملك والهروب من خدمته ، وادعاء العلم . وعلى مقبرته التى تحمل تاريخ ٢٣ أغسطس ١٧٠٩ كتبت عبارة تشير إلى أنه محال استطاع ادعاء الكيمياء وخداع العالم .

والآن ، هل كان كاتانو محالا حقا ؟ . . جاء فى تقرير القنصل « هيس » الذى أشرف على عمليات التحرى عن نشاط الإيطالى الغريب قوله : « لقد كان كاتانو أميا جاهلا ، لا يعرف من الكيمياء سوى سر تركيب المسحوق السرى الذى دفن معه ، وفضل الموت على أن يبوح بسر تركيبه الذى لم يهتد إليه بمعادلات وتجارب شأن الكيميائيين الحقيقيين ، وإنما حصل عليه صدفة من غريب التقى به فى مدينة « نابولى » وعلمه تركيب المسحوقين الأحمر والأبيض ، تلك المادة السحرية التى أحالت الزئبق إلى ذهب وفضة أثبتت صحتها الاختبارات الكيميائية التى أجريت على السبائك ، كل الأدلة تشير إلى أن كاتانو كان قادرا على صنع الذهب وإن لم يكن كيميائيا ، ومن سوء الحظ أنه احتفظ معه بالسر الذى لن يعرفه أحد . . . » .



عودة الإمبراطور الشريد

فى عام ١٥٣٨ جلس على عرش الإمبراطورية الهندية فى دلهى سقاء معدم ، صحيح أنه لم يتربع على العرش سوى يوم واحد ، ولكنه يوم دخل التاريخ . . . يوم وجد السقاء نفسه امبراطورا بالصدفة .

قبل ذلك اليوم بعدة أشهر ، وفى ليلة ممطرة ، كان السقاء يشق طريقه بين أمواج نهر الجانج مستعينا بقربة منفوخة من جلد الماعز باذلا أقصى جهد ليعبر النهر بعيدا عن جو معركة كانت تدور رحاها هناك . وفجأة ظهر بجواره فى الماء شاب تعلق بذراعه ورجاه أن يساعده فى الوصول إلى البر . سحب السقاء المقاتل إلى بر الأمان بسلام ، وجلس هنيهة ليستريح بينما يجفف الآخر نفسه ، ثم قال المقاتل للسقاء : « اطلب ما تشاء مكافأة لك » ضحك السقاء المعدم ساخرا وقال : « احترس يا سيدى فقد أطلب أن أجلس علـى عرش دلهى » . أجـاب المقـاتل ذو الثياب التى تنم عن ثراء عظيم : « لك ما تشاء ستجلس على العرش لمدة يوم واحد ، وسيرى الجميع كيف أن الأمبراطور همايون لا يخلف وعدا قطعه على نفسه » .

همايون هو ابن بابور أو زاهر الدين الملقب بنمر كابول . . همايون كان أقل أباطرة المغول حظا ، فقد عرشه ، وثراءه ، وكل شئ ما عدا قلة من أتباعه ، ولم تر عيناه عرشه الأمبراطورى مرة ثانية إلا بعد ستة عشر سنة من المشقة والنضال . بر همايون بوعده مع السقاء الذى ساعده على الوصول إلى الشاطئ وبينما كان الأخير يستمتع بالرفاهية فى قصر الأمبراطور أمر همايون فجئ بالقربة التى اشتركت فى إنقاذه وقطع جلد الماعز إلى أجزاء صغيرة ، ختمت كل منها بخاتم الأمبراطور وصارت عملة وأمسى السقاء



غنيا فى نهاية اليوم . هذه الواقعة تطابق فى مضمونها أخلاقيات وسلوك همايون ، ولو كان أبوه حيـا لضحك للفكاهة ، ووافق على بر الفارس بوعده ، لكن نمر كابول لم يكن يسمح لنفسه بالسقوط فى النهر كما سقط ابنه وخلفه .

كان همايون حين تولى حكم دلهى فى الثالثة والعشرين من عمره كان شجاعا ، رقيق القلب ، شريفا ، غير أنه كان ـ على عكس والده المحظوظ ـ سيئ الحظ إلى أقصى الحدود ، بدرجة أنه بدأ بداية سيئة عندما توفى أبوه الأمبراطور زاهر الدين عام ١٥٣٠ ، وخلفه همايون على العرش ، فأضعف ملكه بإعطاء أشقائه الثلاثة أجزاء هامة من الأمبراطورية ، كان هذا كرما منه ، ندم عليه فى المستقبل لأنهم جميعا كرسوا معظم جهدهم ووقتهم لإسقاطه عن العرش . ويبدو أن أغلب سوء حظ همايون كان مرتبطا بالماء ، ويحتفظ تاريخه بعدد غير عادى من خسران المعارك نتيجة لسوء

الأحوال الجوية ، أو السقوط فى النهر. فلم يكن يهاب أن ينجو بحياته بالقفز بحصانه من فوق جسر على النهر ، ولم يسبق لأحد أن حاول عبور نهر جامح على ظهر فيل لم يكن ذكيا بما يكفى للوصول إلى الساحل . وفى هذه المرة كاد الأمبراطور أن يغرق ، لو لم ينقذه فى اللحظة الأخيرة أحد رجاله ، ربط قماش عمامتين من طرفين وألقاهما كحبل نجاة للأمبراطور ومع ذلك فقد كان همايون مقاتلا جسورا ماهرا لا يخطئ إذا نازل ، يجيد تخطيط الحرب وفنون القتال . وفى ذات مرة استطاع بنفسه و ٣٠٠ من خيرة رجاله الاستيلاء على قلعة شافيانير الحصينة الواقعة فوق تل منيع ، وذلك عن طريق زرع مسامير من الصلب فى صخور التل وجدار القلعة ليلا ، ثم تسلقوا المسامير واقتحموا القلعة . استهلك حرب إخوانه الثلاثة من وقته وجهده الكثير ، وفرض عليه ذلك أن يحارب فى محاولات يائسة للحفاظ على وحدة الامبراطورية ، وفى النهاية وصل إلى حالة من الضعف ، انتهزها ثائر افغانى اسمه شيراخان ، وفقد الأمبراطور عرشه ، وثروته وكل شئ ما عدا قلة من أتباعه وأصبح شريدا ينتقل بأتباعه من صحراء السند الشاسعة . ومضت عليه ست عشرة سنة قبل أن تقع عيناه على عرش دلهى مرة ثانية .

كانت مغامرات همايون فى الصحراء بمثابة إنذرات لأعدائه ولكنها كلفته معظم رجاله . وفى ذات مرة هاجم حفل زواج أحد أشقائه ، واختطف من كانت ستصبح عروسا ، وفر بها إلى الصحراء . كان اسمها حميدة ، وسنها ١٦ سنة ، والغريب أنها لم تقاومه وصرحت له بعدها أنها أحبته من أول نظرة ، فتزوجها فى الحال وشاركته عن طيب خاطر فى حياة التشرد بصحراء الهند الكبيرة ، تختفى نهارا وتمتطى صهوة الجواد ليلا هربا من قوات الثائر الأفغانى الذى استولى على العرش . أنجبت حميدة ابنهما « أكبر » فى الصحراء وعندما بلغ أكبر السنة الأولى من عمره ، انقضت على همايون قوات شقيق آخر فجأة فاضطر همايون إلى الفرار بجلده ، وفى حمأة الارتباك ترك ابنه ـ أكبر ـ وراءه . هرب همايون وزوجته حميدة على



جواديهما وحيدين إلى ـ فارس ـ وهناك استطاع أن يجمع جيشا ، دخل به أفغانستان ، وأسقط قندهار التى كان يحكمها أخوه الثالث ، ثم زحف منها إلى كابول العاصمة حيث كان ابنه أسيرا ، واستسلمت كابول ، واجتمع شمل الأسرة مرة ثانية ، ولم تكن تلك هى المرة الأخيرة ، فقد وقع الأمير ـ أكبر ـ فى الأسر مرتين ، وأنقذ منه .

أخيرا ، فى عام ١٥٥٤ استطاع همايون أن يحشد جيشا من ١٥٠٠٠ فارس ، وهاجم البنجاب ، كانت معركة « سيرهند » معركة مريرة فاصلة خاضها همايون وعلى جواد بجواره كان ابنه ـ أكبر ـ فى الثانية عشرة من عمره ، وخلال عام من المعارك المتصلة ، عاد همايون إلى عرشه فى دلهى معزز الجانب . حارب همايون طويلا ليعود إلى ملكه ، لكنه لم يستمتع بالسلطة كثيرا بعد انتصاره . صعد الدرج ذات مساء بارد إلى قمة مكتبته وأثناء نزوله سمع صوت المؤذن لصلاة العشاء من مسجد قريب ، فتوقف على الدرج ساكنا يتلو الأدعية منتظرا انتهاء الأذان ، ولما بدأ النزول انزلقت قدمه على المرمر المصقول ، وسقط على الأرض فدقت عنقه ، مؤكدا أنه أسوأ أباطرة المغول حظا حتى النهاية .

تمثال تخليداً لبائع صحف!

بائع صحف من أواخر القرن الثامن عشر ، ينادى على بضاعته فى أحد شوارع « جريت بارينجتون » بولاية ماسيشوسيتس ، ولا أحد يسمعه ، لأنه ليس إلا تمثالاً[1] من البرونز بالحجم الطبيعى لرجل . والتمثال واحد من اثنين فى الولايات المتحدة الأميركية تخليدا لباعة الصحف ، وتقديرا لدورهم العظيم فى نقل الثقافة والمعرفة من المطابع إلى الجماهير العريضة على مدار السنة لا يعوقهم عن توزيع الصحف يوميا حر لافح ولا برد قارس أو رياح عاصفة .

كانت بلدية المدينة قد أهملت هذا التمثال سنين عديدة ، حتى طالب بتجديده وإعادة تنصيبه نائب عام المدينة بارى هيوجز ، بعد أن قرأ فى إحدى الصحف ، أن التمثال الوحيد لبائع صحف يوجد فى لشبونة عاصمة البرتغال ، وأراد أن يصحح المعلومة التى نشرتها الصحيفة بإعادة التمثال إلى قاعدته . وفى أمريكا تمثال آخر لبائع صحف ، وهو تمثال هاريسون جراى أوتس مؤسس جريدة لوس انجلوس تايمز ، الذى كان يكتب جريدته ويطبعها ويوزعها بنفسه عام ١٩٢٠ وعرفه الناس كبائع صحف أكثر مما عرفوه مؤسسا ومحررا ، فخلدوه بهذا الوصف . وكانت المجتمعات صغيرة فيما مضى ، تتكون من سكان قليل عددهم نسبيا ، والقراء قلة بسبب تفشى الأمية ، ولذلك كان من السهل على منشئى بعض الصحف الأوائل

---

(١) لقد أمرنا – نحن المسلمين – باتباع ملة إبراهيم – عليه السلام – وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالنهى عن صناعة التماثيل ، وعن تصوير ما فيه روح ، سواء أكان إنسانا أم حيوانا أم طيرا ، فعن ابن عباس – رضى الله عنه – قال رسول الله ﷺ : « من صور صورة فى الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم : « إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه تماثيل » .

أن يوزعوا صحفهم بأنفسهم وبعدد قليل من مساعديهم ، ومع تقدم الطباعة وزيادة عدد القراء والنسخ المطبوعة ، وسعة الرقعة الجغرافية لانتشار الصحيفة ، بدأت مرحلة وسطاء التوزيع ووسائل النقل ، والتوزيع بالبريد على المشتركين . ومع ما طرأ على التوزيع من تقدم مريح إلا أن المشقة التقليدية التى يتحملها بائع الصحف لم تتغير ، والمقصود به ذلك الإنسان الذى يجول بصحفه على زبائنه ، وليس بائع الصحف عن طريق الأجهزة الآلية المنتشرة حاليا فى بعض أنحاء أمريكا وأوروبا ، التى تبتلع عملة النقد فتخرج للمشترى النسخة التى يريدها .

وليس المقصود أيضا بالتخليد والتقدير أولئك الطلبة الذين يوزعون الصحف فى أيام العطلات وأوقات الفراغ ومنهم الرئيس الأميركى الأسبق جونسون فى طفولته ، وغيره من المشاهير كثيرون ، وإنما المقصود ذلك الإنسان الذى يتفرغ لتوزيع الصحف كمصدر رزق . تعتبر نيللى ميتشل نموذجا مثاليا لباعة الصحف ، فهى سيدة من مدينة « ماونتين هوم » بولاية أركانساس الأميركية ، فضية الشعر ، فى الثمانين من عمرها ، تجوب نفس الطرقات فى منطقة سكنها منذ ثلاثين عاما ، على ذراعيها ٣٠٠ نسخة من الجرائد اليومية عدا الأسبوعية ، وتعود عند الظهيرة إلى بيتها بدونها . وتقول نيللى : « أحب عملى فهو شريف ودخله يسدد متطلبات معيشتى ، أبدأ فى السادسة صباحا وأفرغ منه ظهرا ، لا أطيق أن أتوقف عن أدائه فأنا أحب الناس الذين تعودت أن أراهم فى طريقى منذ ٣٠ عاما ، وبيع الصحف حياتى وسعادتى ، وبغيره أغيب فى الضياع . أحمل ٣٠٠ نسخة فى أيام الأسبوع العادية و ٤٠٠ نسخة أيام الآحاد ، ولم أتخلف يوما خلال ٣٠ سنة مهما ساءت الأحوال الجوية ولم أحتفظ يوما بكشف حساب للزبائن الذين يدفعون أسبوعيا أو شهريا منذ بدأت بيع الصحف خلال الحرب العالمية الثانية ، وقد كلفنى ذلك بعض المال لكن معظم الزبائن أمناء ولا كنت أفلست منذ زمن بعيد ، أعرف زبائنى واحدا واحد معرفة شخصية



البرت بومان



نيللي ميتشيل

ويربطني بأغلبهم صلات عشرة ومودة من كثرة ما التقينا ،وهذه واحدة من مزايا عملي التي تشجعني على الاستمرار ».

البرت بومــــان بائع صحف عجوز آخر يعيش في مايروك بولاية نيويورك ، احترف العمل صدفة منذ تسع سنوات ، ومن يومها وهو يستيقظ في الساعة الثانية صباحا ، ويقود سيارته ١٤ ميلا يوميا ليوزع على زبائنه ٢٠٠ نسخة ثم يعود إلى بيته ليتناول طعام الإفطار في السادسة صباحا . قال بومان : « قد أكون في الثمانين من عمري ، لكن النهوض مبكرا لا يضايقني وإنما أفادني فعلا ولم أعد أشعر بألم التهاب المفاصل ، كما أن الحركة أنقصت وزني ٢٥ رطلا وتحسنت بذلك صحتي » . ويذكر بومان قصته مع بيع الصحف فيقول : إنه كان كهربائيا تقاعد عن خدمة السكك الحديدية ، وفي عام ١٩٧٠ أبلغه جاره في السكن أن حفيده بائع الصحف



يجد صعوبة فى توزيع ٦٠ نسخة فى منطقته ، فقرر بومان مساعدة الشاب الحفيد وبدأ مساعدته بتوزيع الستين نسخة كل صباح ، وبعد شهور قلائل كف الشاب عن التوزيع فحل بومان محله وتحمل العبء كله حتى يومنا هذا . وأضاف قوله : « أربح حوالى ٧٠ دولارا فى الأسبوع ، لكن ما

اكتسبته من صحة لا يقدر بمال ، ولا أذكر انى توقفت عن توزيع الصحف سوى يوم واحد منذ عامين ، حينما بلغ سمك الجليد المتساقط على الطرقات عشر بوصات وتعذر المسير ، فوزعت يومها ٥٠ نسخة فقط وبعت ما بقى فى اليوم التالى بسهولة لأن أحدا لم يبارح بيته ذاك اليوم ، وهذا ما لا يحدث لو أن بائع الصحف انقطع يوما لأسباب شخصية ، إذ أن صحف نيويورك . وبهذه المناسبة أذكر يوما زلت قدمى فسقطت على الأرض واتكأت على يدى فانكسر رسغى ، ولم يعقنى ذلك عن مواصلة توزيع بقية الصحف وحدث أن سرق لص سيارتى فى العام الماضى ، لكن جيرانى الطيبين أعارونى سياراتهم الواحد تلو الآخر أياما عديدة حتى دبرت سيارة » .



الآلة البشرية المقاتلة

كنا كلما طرقت مسامعنا أنباء انتصار البطل الأسطورى **محمد على كلاى** ، على واحد من الطامعين فى بطولة العالم للملاكمة ، طافت فى أذهاننا ذكريات **ولكوت** ، **وليستون** ، **وجو لويس** ، **وفريزر** ، **وفورمان** ، **وباترسون** ، وغيرهم من عمالقة الملاكمين الزنوج الذين توارثوا الحلقة وتناوبوا عرشها . . . لكن ما من أحد يذكر ملاكما اسمه « **جاك جونسون** » ، مع أنه كان زنجيا أيضا ، وبلغ من القوة والمهارة ما جعل الناس فى عصره ، يطلقون عليه اسم « الآلة البشرية المقاتلة » ، ومثلما يشق **محمد على** طريقه إلى الشهرة والثروة معا بقبضته ، فعل **جاك جونسون** ، وكان أسطورة زمانه ، رغم مكائد البيض الأمريكيين .

لماذا يسقطون بجوار الستارة ؟

كان أهالى بلدة **جالفستون** على موعد مع السيرك ، الذى يطوف بحوالى ٣٠٠ بلدة فى ولاية **تكساس** ، ويستقر فى بلدتهم حينا عقب موسم حصاد القمح ، كان السيرك يعرض ألعابا كثيرة مسلية لا تخلو من ألاعيب وخدع ، ومن بينها منصة مربعة محوطة بالحبال ، يحيط بها المتفرجون من ثلاثة جوانب ، وينتهى ضلعها الرابع بستارة لا يعلم أحد ماذا تخفيه خلفها .

وعلى حلقة الملاكمة هذه ، يقف رجل أنيق ، ويقدم للجمهور ملاكما شرس المظهر مفتول العضلات ، ثم ينهى صياحه بقوله : « والآن اسمعوا أيها الناس ، كل واحد منكم يستطيع أن يحصل منى على خمسة دولارات فورا ، وما عليه إلا أن يستمر واقفا على قدميه ثلاث جولات أمام **بوب توملينسون** هذا .

فى ذلك الوقت عام ١٨٩٧ كان الدولار أجرا يعادل أسبوعا لبعض فئات العمال الريفيين ، كان يكفى آنذاك لتحميل عربة بمئونة تكفى أسرة لأكثر من أسبوع ، وكان بعض الشباب الريفيين السذج البسطاء الأشداء يغامرون من أجل الحصول على الدولارات الخمسة ، وينازلون « بوب » .



وكانوا جميعا يسقطون فاقدى الوعى ، والغريب أنهم كانوا جميعا يتلقون الضربة القاضية بجوار الستارة .



هزيمة البطل الزائف :

وذات ليلة لبى الدعوة إلى الدولارات الخمسة شاب زنجي اقتحم الزحام ، واجتاح الحبال ، وخلع قميصه عن صدر عريض بارز العضلات يعلو قامة طويلة ، وقال للرجل : « دعنى أجرب حظى » .

هذا الشاب لم يكن سوى « جاك جونسون » ، الذى لم يقف على حلقة من قبل ، ولكنه لم يكن قد وصل إلى سن التاسعة عشر ، قبل أن يتعلم فنون الدفاع عن النفس ، وأفضل الطرق للوقاية من الضرب ، خلال آلاف المشاجرات الشرسة فى أحقر طرقات البلدة ، ومئات وجبات الضرب التى ينالها من مخدوميه البيض .

وتقدم « بوب » نحو فريسته الجديدة يزأر مكشرا عن أنيابه ، متعمدا مطاردته وتضييق الخناق عليه ليجبره على الاتجاه نحو الستارة الغامضة ، التى يخرّ عند قدميها كل مقاتل ، لكن « جاك » كان حريصا على البقاء بالقرب من أضلاعها الثلاثة الآمنة . وعلى العكس من ذلك ، بدأ « جاك » يطارد « بوب » ـ البطل الزائف ـ نحو الستارة ، ويكيل له ضربات سريعة موجعة ، جعلته يستغيث بنظرات ذات مغزى يرشق بها الحكم ، فما كان أمام الحكم بعد أن تأكد من الخسارة ، إلا إنقاذ هيبة ملاكمه ، بإنهاء الجولات الثلاث قبل موعدها ، ونفح الشاب الزنجى الدولارات الخمس ، وكانت تلك أول دولارات يدفعها السيرك فى تاريخه المتحد ، وفى نفس الوقت كانت بداية احتراف « جاك جونسون » ، وأول قطرة من سيل الثروة التى انهالت عليه من الملاكمة .

ملاكم لا يقهر :

ما كان للزنوج فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى من حرف يقتاتون منها إلا أحقر المهن وأدناها ، وقد جرب « جاك » معظم تلك الحرف . . . غسل الأوانى فى المطاعم ، واعتنى بالخيول والمواشى فى الحظائر ، وقطع الأشجار ، وسجن مرة أو اثنتين بتهمة الاختفاء تحت عربات السكك الحديدية للتهرب من دفع أجرة السفر وها هو يكتشف أخيرا أنه كان يبحث عبثا عن المال بينما المال مخبيء فى قبضته .

بدأ جاك العمل الجديد كشريك ، لكنه لم يلبث أن تحول إلى احتراف الملاكمة لحسابه ، وكان القانون الأمريكى فى ذلك الوقت يعتبر الملاكمة من أجل المال جريمة ، وكان على الملاكمين المحترفين أن يفكروا دائما قبل القتال فى وسيلة لشغل رجال الشرطة عنهم أو الفرار منهم إذا ضبطوا متلبسين ، وإلا غيبوهم خلف القضبان . . .

وأتقن « جاك جونسون » القتال والفرار من الشرطة معا ، فكان يشق طريقه بينهم كما تشق البطة طريقها فوق الماء وتحته ، فظل دائما بعيدا عن قبضة القانون ، لأنه تعلم الكثير من أساليب خداع البوليس أثناء طفولته البائسة وبنفس القدر كان قد تعلم كل فنون الشجار فلم تمض سنوات قليلة حتى أصبح الناس يلقبون صبى جالفستون الزنجى الفقير ، « بالآلة البشرية المقاتلة » ، لأنه كان يلاكم ساعات متوالية دون أن ينال منه التعب أو ينال منه خصومه وكانت تنتهى المباريات دائما وهو منتصب القامة بينما المتحدون يتساقطون عند أقدامه ، وهو كالطود الشامخ ينادى دائما : « من يعتقد أنى تعبت فليتقدم ويجرب حظه » . وما من أحد وجد حظا مع « جاك » ، كما أنه كان يقضى على خصومه الجدد فى وقت أقصر كلما طال وقوفه على الحلقة وتعددت منازلاته .

كسب « جاك » مالا كثيرا ، وكانت فلسفته فى الإنفاق تتلخص فى أن المزيد من الدولارات لا تعنى سوى المزيد من مباهج الحياة ، كان يحتفظ فى طيات ذكريات ماضيه أثناء غسل الصحون فى أفخر المطاعم ، وخدمة خيل الأثرياء ، بصور من وسائل إنفاق الدولارات فى حياة رغدة ، فاشترى أفخر الثياب ، واقتنى أغلى سيارات السباق فى عصره ، واعتاد أكل ما لا يأكله سوى الملوك والمشاهير .

وازداد على مر السنين خبرة وحنكة وقوة وشهرة ، فصار يردد فى كل مكان أنه يرغب فى منازلة الملاكم الأسطورى « جيم جيفرى » على بطولة العالم فى الملاكمة ، وكان عليه أن ينتظر أربع سنوات ليلاعب الملاكم الأبيض على اللقب ، ولسوء حظه اعتزل « جيفرى » الملاكمة دون أن يهزمه أحد ، أصبح البطل الجديد « تومى بيرنز » يقف بين « جاك » وبين



اللقب ، وليزيحه عن الطريق ، لعب ضده مباراة مرة أوقفها الحكام بعد ١٤ جولة ، حتى لا يقضى على حياة « تومى » ولأول مرة فى تاريخ الملاكمة يفوز بلقب العالم فى الوزن الثقيل زنجى أسود .

استاء الأمريكيون البيض من فوز ذلك الزنجى باللقب و لكنهم كانوا عاجزين عن صنع أى شىء ، لأن العملاق الأسود ذى الابتسامة الذهبية العريضة لا يقهر ، حتى خارج حلقة الملاكمة هابه رجال الشرطة ، وكانوا يتعامون عن مخالفته للقانون بقيادة سيارة السباق بسرعة خارقة .

ومن فرط غيظ السادة البيض ، شجعوا « جيم جيفرى » على إلغاء تقاعده ، والعودة إلى الحلقة ، ولو لمجرد استرداد لقب البطولة واسترداد شرف وكرامة الجنس الأبيض من ذلك الزنجى ، وافقهم « جيم جيفرى » بغباء ، دون أن يعمل حسابا للسنين التى أعطت « لجاك » بقدر ما أخذت منه ، وكانت النتيجة أن سقط « جيم » على أرض الحلقة مهيض الجناح ، ومعه كرامة السادة البيض و تحقق لجاك حلما طالما راوده إذ قضى على بطل العالم الذى لم يهزمه أحد فضلا عن فوزه بجائزة قدرها ٦٠٠٠٠ دولار ، وافتتح مطعما فى شيكاغو ، واستأنف حياة النعيم ، وأصبح من جديد القاسم المشترك الأعظم لأحاديث الناس .

أطول مباراة فى تاريخ الملاكمة :

استثار انتصاره غضب البيض ، وبدأ يتعرض لفنون من مضايقات

البوليس ، فقرر السفر إلى فرنسا ، أعجب سلوكه الجرئ أهل باريس وشجعه ذلك على الانتقال إلى انجلترا ، واشترك فى إدارة ناد ليلى لندنى ، وقدم فيه عروضا تعتمد على القوة .

ظل عـلى هذا الحـال حتى اندلعت الحرب العالمية العظمى عام



١٩١٤ ، وأصاب الأندية الليلية الكساد ، وأفلس « جاك جونسون » فسافر إلى كوبا ، وهناك وقع عقدا للدفاع عن لقب بطولة العالم ، ضد عملاق أبيض يبلغ طوله ٦ أقدام و ٦ بوصات اسمه جيسى ويلارد .

أغرب ما كان في جاك أنه لا يتدرب استعدادا لمبارياته كان يرى أن النشاط اليومي لإنسان متحرك متوثب ، هو في حد ذاته تدريب ، وكان معتدا بنفسه ، يعتبر أن التدريب مضيعة للوقت ، وأنه أفضل في حالاته العادية بلا تدريب عن غيره مهما تدرب ، لم يفطن إلى أنه في سن السابعة والثلاثين قد فقد الكثير من قوته ومرونته ولياقته البدنية .

ومع ذلك لعب مباراة العمر ، بل مباراة العصر ، لاكم ، وناور ، وراوغ ، وسدد ضربات كأنها معاول ، لكنها لم تكن كافية لإنقاذه من الهزيمة ، لأن متحديه كان قويا كالثور ، صلبا يتحمل الضربات كأنه صخرة ويرد عليها بعناد وحوش الغابة ، حتى خارت قوى « جاك » بعد مباراة استمرت ٢٨ جولة ، وفاز « ويلارد » بالضربة القاضية .

لم يعبأ « جاك » بالهزيمة ، عاد إلى بريطانيا ، ثم استهوته مصارعة الثيران ، فرحل إلى أسبانيا حيث احترف تلك الرياضة ثم انتقل إلى المكسيك واشتغل مدربا للملاكمين بعض الوقت ، وأخيرا عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأنشأ سيركا .

لم تتأثر طريقة معيشته بعد فقدان اللقب الذي احتفظ به طويلا ، وحتى تقدمه في السن لم يغير من طباعه وعاداته ، ظل يأكل ويشرب ضعف ما يأكله ويشربه غيره ، ويقود السيارات بسرعة مضاعفة ، وكان يبدو في السبعين من عمره كما كان في صدر شبابه متوقد الذهن ، مشتعل النشاط حديدي البنية ، حتى قضى عليه غرامه بالسرعة ، حينما اصطدمت سيارته « اللنكولن زيفاير » بشجرة عام ١٩٤٦ وكانت الصدمة في سرعة الضربة القاضية ، وتلك هي النهاية التي حلت به ، وبعد أن استمر اسمه يحتكر عناوين الصحف قرابة نصف قرن كبطل ، نشرته كل صحف أميركا أوروبا لآخر مرة كضحية لحادث مرور .



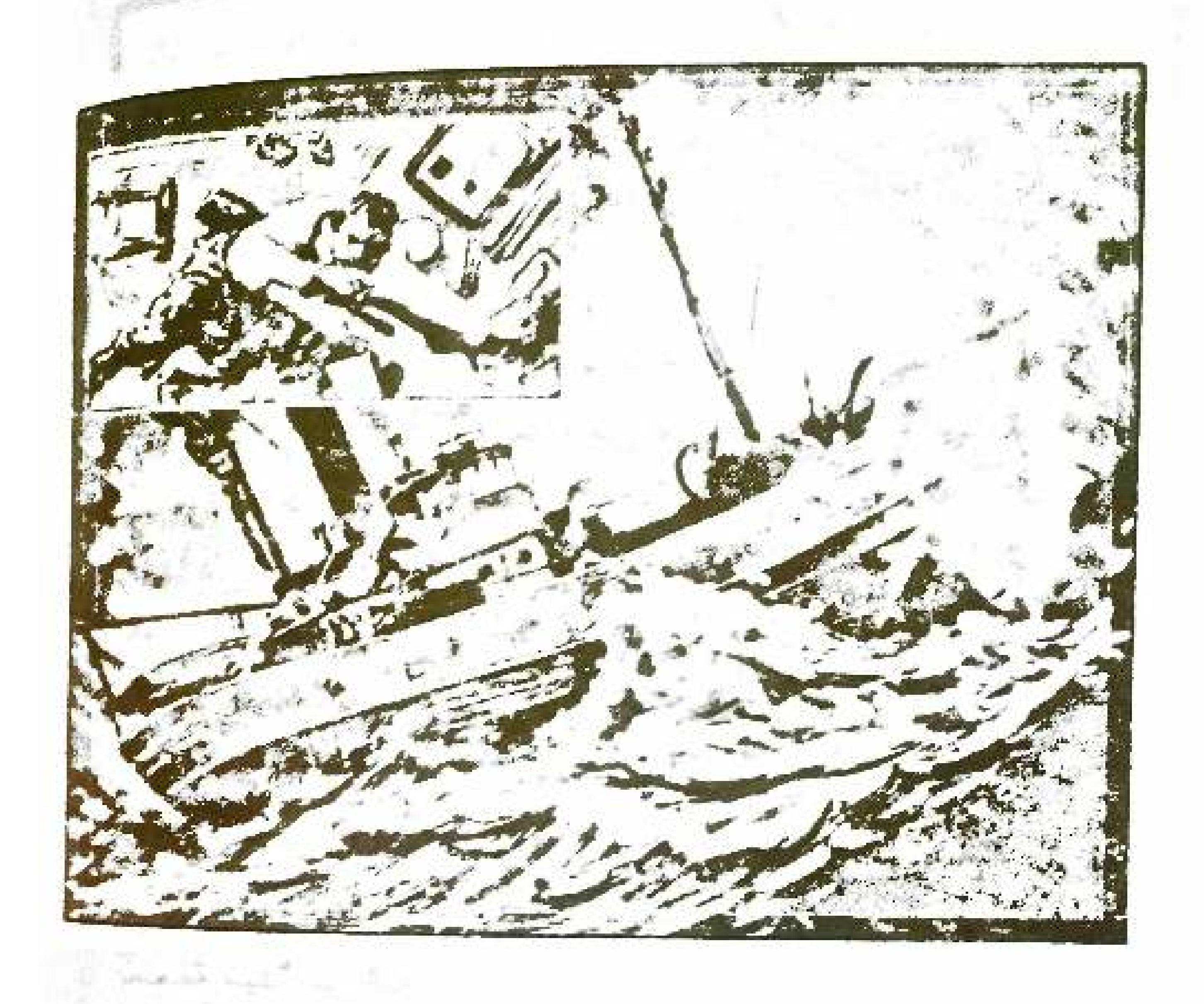
مأساة البوصلة الكاذبة

سفينة الصيد البخارية هـاو تمخر عباب البحر بثبات ، رغم ثقل ظل المياه القطبية ، وفى الساعة الواحدة من صباح أحد أيام نوفمبر ، بينما كان الملاحون يستعدون للعودة بعد أن اكتفوا بصيدهم ، بدت السفينة الصغيرة كأنما هى فى قبضة مارد جبار اختطفها ، ومن ورائها أمواج عارمة تدفعها ، فتصطدم بالصخور الخفية صدمة عنيفة ، وعلى ضوء المصابيح الخافتة يكتشف الملاحون صخرة كالحة تطل عليهم بوجه كئيب خلال الظلام الدامس ، وصاح أحد البحارة فى رعب : إنها جزيرة الدب . . . لقد ارتطمنا بجزيرة الدب .

يقع هذا النتوء الصخرى الشرير بين النرويج وسبيتزبيرجن ويتمتع بسمعة سيئة بين البحارة لأن مخزونه الحديدى الثقيل تأثير الشلل على مغناطيسية البوصلة ، وهكذا راحت السفينة « هـاو » ضحية البوصلة التى كذبت .

جمع الربان ماكجويجور رجاله الخمسة عشر فى مقصورة السفينة وتطلع إلى غرفة الماكينات الغارقة فى المياه التى غمرتها وأسكتت المحركات وخمدت أنفاس البخار ، وخمدت أضواء مصابيح السفينة ، وأصبحت آمال الجميع معلقة فى جهاز اللاسلكى الذى يعمل بالبطارية ولم يخيب ضابط اللاسلكى « تيرنر » آمال الرفاق واستطاع أن يرسل إشارة استغاثة .

خلال النهار وصلت سفن صيد أخرى تلبية لإشارة الاستغاثة التى أرسلتها « هاو » الجانحة ، لكنها لم تستطع أن تفعل شيئا لأن « هاو »



كانت قد دخلت بين سلسلة من الصخور وفشلت كل الجهود التى بذلت للعبور بينها .

لم يكن يسكن جزيرة الدب فى عام ١٩٣١ حينما حدثت الكارثة سوى عدد من النرويجيين يعملون فى محطة لاسلكية فى أقصى الجزيرة فلما استقبلوا إشارة الاستغاثة من السفينة « هاو » حاولوا تحديد موقعها فى الظلمات القطبية اللانهائية دون جدوى .

كلما مرت الساعات تحركت « هاو » بفعل لطمات البحر القاسية واقتربت من الصخرة الكالحة ، وعلى الرغم من إخفاق النرويجيين إلا أن

ربان سفينة الصيد الف كينج قرر محاولة إنقاذ البحارة عن طريق قمة الصخرة .

جمع رجاله ورجال سفن صيد أخرى فأرسوا سفنهم على الشاطئ الشرقى لجزيرة الدب وهو أكثر نصيبا من الحماية ومن هناك اتصل بالنرويجيين ، وانطلقوا فى مجموعات يشقون دروبهم عبر وديان شديدة الانحدار صخرية وعرة ، ومستنقعات تفصلهم عن البقعة التى ترقد فيها السفينة هاو .

فشلت المحاولة الأولى وكذلك الثانية واستغرقت المحاولتان يومين ، وكان هذا الوقت كافيا لنفاد شحنة بطارية راديو « هاو » ونفاد مؤن بحارتهم ، فعضهم الجوع والعطش وفى نفس الوقت كانت فرق الإنقاذ تستعد لمحاولة أخرى ، وهم على يقين من أن الوقت يمر بسرعة وأن مروره هباء لا يعنى سوى الموت لملاحى السفينة التعسة .

اقترب سجناء فخ جزيرة الدب من هاوية اليأس حينما حل صباح اليوم الثالث ، وفى أضواء منتصف النهار التى تبدو شاحبة فى تلك المنطقة خلال هذا الوقت من السنة ، تطلع أحدهم إلى قمة الصخرة العالية وصاح مبتهجا ، لأنه شاهد رجالا هناك يبدون كملامح أشباح .. إنهم فرقة الإنقاذ . . اهتدت إليهم .

من القمة أسقطوا إليهم الحبال وشدوهم الواحد تلو الآخر ، مسجلين قصة أخرى من قصص الإنقاذ البحرى ، التى تتصارع فيه عزائم الرجال ضد البحر العملاق الغامض بعواصفه وأنوائه وصخوره . . . البحر ذلك العدو الجبار والصديق الكريم فى آن واحد .



قطة .. موظفة فى الحكومة البريطانية!

ذلك الأليف المخطط الذى يربض بجوار المدفأة شتاء غالبا ما يكون من سلالة برية روضها قدماء المصريين ، واستخدموها فى الصيد ، وتوجد وثائق أثرية يرجع تاريخها إلى ٣٠٠٠ سنة تؤكد أن القط كان يستخدم فى حراسة مخازن المحاصيل بمصر . وكان الناس يكنون له احتراما بالغا ، كما كانت الأسر الغنية والفقيرة على الســـواء تحتفظ بالقطط ، يدللونها فى حياتها ، ويلفونها أحيانا بالذهب .

البريد يوظف القطط :

ومن الطرائف الحقيقية أن قطا واحدا على الأقل اشتغل موظفا مدنيا مقابل أجر يتقاضاه وكان اسمه بيتر ، وقد شغل وظيفة خبير فى القضاء على الفئران بالإدارة العامة للبريد فى بريطانيا ، وكان يتقاضى علاوات إضافية خاصة . ولما مات حضر جنازته ممثلون عن موظفى مختلف دوائر البريد . ولم يكن لمهمة القضاء على الفئران أن تتوقف بعد ممات بيتر ، لذا عين آخر ليشغل وظيفته ، ولما كانت أنثى فقد أطلقوا عليها اسم « بيتا » نسبة إلى سلفها ، وأصبحت الخبيرة الثانية فى وقاية البريد من عبث الفئران .

دور القطط فى الحروب :

ويرجع فضل نقل القطط إلى أوروبا للفينيقيين قبل قرون من الميلاد ، حيث نزل أول قط معهم إلى أوربا فى « أتوريا » ، ومنها انتشر فى كل أنحاء ايطاليا ، وبعدها نقل الرومان القط إلى بريطانيا . كانت سفنهم الشراعية الغازية للجزر تحمل من القطط أكثر مما تحمل جنودا ، وكانت الحكمة فى ذلك هى الاستفادة منها فى حراسة تموين الحملات فى مخازن السفن من الجرذان واستعمر الرومان بريطانيا فلم يمض وقت طويل قبل أن تستعمر القطط عالم الفئران فى الجزر ، فلم يبق بيت دون قط ، ومن



القطط نوع يسمى « المنك » وهو قط أليف لا ذيل له ، وهناك أسطورة تحكي كيف فقد القط ذيله ، فتقول : إن جنود المانكس اعتادوا قتل القطط ، والحصول على ذيولها لتزيين القبعات والخوذات . وكانت هناك قطة أنثى فقدت معظم أولادها بهذه الطريقة ، فصعدت إلى قمة الجبل تلد هناك ، وقضمت ذيول أولادها بعد أن ولدتها مباشرة لتنقذها من المصير المؤلم ، ونجحت الحيلة ، لأن الجنود لا يقتلون قطا لا ذيل له . وتستمر الأسطورة فترى أن الأجيال المتعاقبة من هذه القطط استخدمت نفس الحيلة ، حتى أصبحت قطط المنك تولد بلا ذيول .

قانون انجليزى بأسعار القطط :

يظن البعض أن القطط لم تكن تباع وتشترى[1] إلا منذ عهد قريب حيث انتشرت تجارة القطط السيامية وغيرها من ذوات الفراء الناعم الجميل والشعر المنفوش الطويل ، غير أن الأمير هاويل دوا حاكم ويلز حدد

(١) زجر النبى ﷺ عن ثمن الكلب والسنور كما رواه مسلم من حديث جابر .



فى عـام ٩٣٥م بنسا واحدا للجرو الذى لم تتفتح عيناه بعد وبنسين ثمنا للقط بمجرد أن ينمو ويستطيع صيد فأر . وكما أن « هايويل » سن قانونا يفرض غرامة على كل من يقتل قطا . وكان على صاحبَ القط المقتول أن يعلقه من ذيله بحيث يلامس أنفه سطح الأرض ، ويكلف قاتل القط بصب القمح عليه حتى تغطى الكومة أعلى الذيل .





وصار القط من ضروريات كـل بيت في انجلترا .

القطط بين التشاؤم والتفاؤل :

ارتبط بالقط عادات ومعتقدات خاطئة وهى من قبيل الخزعبلات والخرافات ، ففى يوركشاير اعتقدت زوجات البحارة أن اقتناء القط الأسود يؤكد عودة أزواجهن إليهن سالمين .

وفى ايرلندا يعتبر الاحتفاظ بالقط فى المسكن الجديد بعد الانتقال إليه من المسكن السابق مجلبة لسوء الحظ[٢] ، وقد يرجع هذا الاعتقاد إلى أن القط يميل إلى الارتباط بالمكان أكثر من الارتباط بالإنسان ، وغالبا ما تعود إلى المسكن القديم إذا ما أجبرت على الانتقال منه . وفى العصور الوسطى بدأ التشاؤم من القط واعتباره حيوانا شريرا له علاقة بالسحر الأسود ، وقيل : إن السحرة يستطيعون التحول إلى قطط ، ويستخدمون القطط فى أعمالهم الشريرة ، وقامت حملة للقضاء على القطط كما أحرقوا نسوة عجائز بتهمة حيازة قطط سوداء .





(٢) من البدع اعتقاد الشؤم أو السعادة فى الدواب والطير وأنها تجلب نفعاً أو تدفع ضراً ، كما نص على ذلك الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح « الطِيَرة شرك » .

رحلة القلم مع الإنسان

تدين البشرية لعملية الكتابة التى مارسها الإنسان منذ أمد بعيد فى حياته اليومية علميا وعمليا ، بما اكتنزته على مر القرون من تراث فكرى وحضارى ، وما حققته من منجزات عمرانية وتكنولوجية وما أبدعته من آداب وفنون ، وما تحتضنه من مبادئ الدين والأخلاق نتوارثها جيلا بعد جيل ، وما سوف نتركه للأجيال القادمة من تجارب العلماء وتاريخ الدول ، وسير العظماء ، ونتاج قرائح الرواد والمستكشفين فى كل علم وفن .

الكتابة اليوم أصبحت سهلة ميسورة تؤديها الأيدى بسرعة عظيمة ، والطابعات اليدوية بطريقة أنيقة ، والمطابع الضخمة بإنتاج غزير النسخ متعدد الألوان ، واستعيض بأجهزة « التلكس » فى كتابة البرقيات القصيرة والمطولات الكبيرة عبر الأثير ، ولم تكن الكتابة فيما مضى سهلة متقنة على هذا النحو ، وإنما بدأت فكرة للتعبير والتسجيل ، نفذت بطريقة بدائية ، ثم تناولها التحسين والتطوير عصرا بعد عصر .

طعنة ليوليوس قيصر بقلم :

فى كتاب « المجتمعات المتأخرة » للدكتور عبد اللطيف عزت الرئيس الأسبق لقسم الدراسات الاجتماعية بكلية آداب جامعة القاهرة ، وفى غيره من مؤلفات علماء الاجتماع عن المجتمعات البدائية ، جاء أن أول محاولات الإنسان لتسجيل أفكاره على الأسطح برموز وعلامات ، كان يضعها بغمس أصبعه فى دم الحيوان أو عصارة بعض النباتات الملونة ، ثم يرسم بها خواطره على جدران الكهف الحجرى الذى يسكنه ، كان يرسم حيوانا تعبيرا عن أنه

اصفاده ، أو شيئا آخر كناية عن أهميته . وبعد حقبة من الزمان استعاض عن أصبعه والدماء والعصائر بأدوات حادة من العظام أو الصخور البركانية الصلبة يحفر بها الرموز على لوحات من الصلصال الذى يجف ويكتسب صلابة تكفى لحفظ ما عليه من كتابة لزمن يطول أو يقصر .



لوحة صلصال رومانية وجدت في بعلبك

وطور الإغريق والرومان الطريقة الأخيرة فاستعاضوا عنها بألواح من الخشب مكسوة بالشمع ، وطوروا أدوات الحفر والكتابة ، فاستعملوا قلما مستدقا مدببا ، ويذكر أن يوليوس قيصر أصدر أمرا يحظر على غير الكتاب الرسميين اقتناء هذا النوع من الأقلام المعدنية بعد أن شاع استعمالها فى جرائم قتل ، وكأنه كان يتنبأ بأن مصرعه سيتم ببعضها ضمن الخناجر التى انهالت عليه وأنهت حياته .

ريش الطيور للأدب والفن :

قبل الإغريق والرومان اكتشف قدماء المصريين نوعا من عيدان قصب البوص يمكنها أن تحتفظ فى جوفها بعمود من سائل ملون يستخرجونه من نبات النيلة فيسيل حسب الحاجة عندما يلامس سن القلم سطحا مستويا ، واستعملوا أقلام البوص هذه فى كتابة ثروة من المخطوطات العلمية والتاريخية على أوراق البردى ، ذلك النبات الذى وجدوه بكثرة على ضفاف النيل .



الريشة عند الاغريق والرومان

ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفوا أن جذر ريش الطائر إذا عولج بعناية أنتج خطا يفوق الكتابة بأقلام البوص ، ومن ريش الطيور استمدت ريشة الكتابة اسمها فى اللغة العربية واللغات اللاتينية إذ أن كلمة « بن » أصلها اللاتينى « بينا » ومعناها ريشة طائر . وانتشر استعمال « الريشة » كأداة للكتابة فى الشرق الأوسط وأوروبا خلال القرون الوسطى وعصر النهضة الأوروبية حتى أوائل القرن الحالى ، حتى أن الفلاحين كانوا يربون قطعان الإوز ويبيع ريشها صالحة ناضجة ، تزال من حول طرفها طبقة الجلد الرقيقة وتعالج بالتدفئة ، ثم تغمس فى محلول حجر الشب المغلى وحامض النيتريك لتصبح مرنة بما يكفى للكتابة . وكما أن الناس فى وقتنا هذا يتباهون باستعمال أقلام مختلفة المعادن كان الناس قديما يتفاخرون باستعمال ريش البجع والديكة الرومية والطواويس ، لكن كبار الفنانين والكتاب كانوا يفضلون ريش الغراب ، وكانت أغلاها ، والمعروف أن الروائى الانكليزى الكبير تشارلز ديكنز ، مؤلف الروائع مثل « أوليفر تويست »



ـ شالز ديكنز





محاولة الكتابة الاولى

و « قصة مدينتين » ، و « ديفيد كوبر فيلد » كان يستخدم فى كتابتها ريش الغربان كذلك الفنان الهولندى العظيم ويمبراندت الذى تمرد على المذهب التقليدى فى الرسم ، وأبدع المدرسة التعبيرية ، كان يرسم لوحاته بريشة الغراب .

اكتشاف سن الكتابة الفولاذى :

وفى عام ١٨٩٠ اخترع جوزيف براهام آلة تقطع ريشة الطائر إلى أجزاء معقولة ، يمكن تركيبها على قضيب رفيع من الخشب ، بحيث يمكن استعمال ريشة الطائر الواحدة فى عدة أقلام ، وهكذا فتح الطريق إلى التفكير فى استبدال ريشة الطائر بسن من الصلب ، استعمله المخضرمون ممن يعيشون الجيل المعاصر أيام دراستهم وبواكير حياتهم العملية قبل انتشار الأقلام ذات خزان الحبر السائل أو الجاف . فى أوائل القرن التاسع عشر بدأ البحث عن بديل أفضل من الريش ، وكان البديل سنا من قرون الحيوان أو صدفة السلحفاة ، وللأثرياء من الماس والياقوت ، وانتهى الأمر إلى التسليم بأن سن الصلب المدبب هو أفضل المواد وفاء بالغرض .

ظهر القلم ذو السن الصلب فى دول كثيرة فى أوقات متقاربة جدا لكن رجلا انجليزيا اسمه توماس شيلدون يعتبر صاحب الفضل فى إنتاج سن الكتابة الصلب إنتاجا وفيرا مما خفض من سعره إلى حد كبير ، فأصبح فى متناول الجميع ، مما سهل الكتابة على نطاق واسع وقد بدأ إنتاج هذا المصنع عام ١٨٩٢

فضل الصفقة التى الغيت :

المرحلة التالية للأقلام هى القلم ذو الخزان ، وأول قلم عرف من هذا النوع هو القلم الفضى الذى أهدى إلى المؤرخ صموئيل بيبز من أحد النبلاء ، وشاهده معه المصلون فى الكنيسة وهو يكتب به ملاحظات عن الموعظة دون أن يغمسه فى محبرة فأحاطته نظرات الفضول من كل جانب لكنه كان



صمويل بوبييز

قلما بدائيا ، ففضل عليه الكتابة بالريشة ، لأنه لم يكن يسيطر على الحبر سيطرة تحكم الانسياب .

قبل منتصف القرن التاسع عشر كان « لويس أديسون ووترمان » ،

وهو مندوب شركة تأمين أميريكية على وشك توقيع بوليصة تأمين قيمتها كبيرة مع عميل بالغ الثراء ، حينما سكب القلم كل ما فى خزانه من حبر على العقد ، وألغى العميل الصفقة من فرط استيائه فعزم على أن يخترع قلما لا يفقده عملاء آخرين ، واستطاع بعد تجارب ومحاولات عديدة أن يحل مشكلة القلم القديم بتصميم قلم أكثر تحكما فيما يحتويه خزانه من حبر عن طريق تمكين الهواء من المرور إلى خزان القلم فى نفس الوقت الذى ينساب قدر من الحبر للكتابة وهكذا أمكن إنتاج أول قلم عملى ذى خزان وكان ذلك عام ١٨٥٥ وتطور تخزين الحبر فى القلم من الطريقة المباشرة إلى الخزانات الإضافية الجاهزة باختراع بدائل خزانات الحبر فى نهاية الخمسينات من القرن الحالى ، وانتهت متاعب اقتناء المحابر وأكياس الحبر المطاطية فى جوف الأقلام وما تسببها من متاعب .

خمسون سنة لتطوير السن الكروى :

وما أشبه الأقلام ذات الخزان فى يومنا هذا بالخيول المطهمة ، فكما أن الجياد أخلت ميادين العمل الحقة لوسائل النقل الآلية ، كذلك فعلت الأقلام ذات الخزان حيال القلم ذى السن الكروى ، الذى لا تخلو منه يد كاتبة اليوم أينما كانت على وجه الأرض . هذا القلم ينقل الحبر إلى الورق بواسطة كرة معدنية مثبتة فى طرفه وكان سايروس كوتشيندار هو أول من وضع تصميم السن الكروى عام ١٨٩٥ ، لكن القلم ذو السن الكروى نفسه لم يبدأ إنتاجه بطريقة متطورة إلا عام ١٩٤٤ بواسطة رجل هنغارى اسمه لازلو بيرو . عرض « لازلو بيرو » قلمه المتطور على رجل أعمال انجليزى اسمه هنرى مارتن لكن القلم الذى أنتجه مارتن لم يصادف رواجا بسبب بعض العيوب التى شابت الحبر الذى استخدمه ، وتدارك هذا العيب كيميائى أميركى اخترع نوعا من الحبر أكثر صلاحية ، ما إن استخدموه فى القلم الجديد ذى الرأس الكروى المعدنى ، حتى أقبلت البنوك والشركات

ودواوين الحكومات على استخدامه ، وتحول العامة عن الأقلام ذات الخزان إليه نظرا لأنه أقل تكلفة وأكثر سهولة من الناحية العملية .

وبعد ، فإن ما ذكر فى هذه العجالة ليس إلا الجانب العلمى من قصة الكتابة ، أما تاريخ الكتابة بالطباعة وقصة الألكترون مع الحروف ومراحل تطور الكتابة من رموز مرسومة إلى حروف أبجدية تتجمع فى كلمات ، تبنى جملا ، وتنتظم فى موضوعات ، منها ما هو علم بذاته ، أو فن بنسيجه الأدبى شعرا أو نثرا . . . فلكل منها تاريخ طويل يستوعب مجلدات .



الكاتب الفرعوني قاعد القرفصاء

معهد أمريكي لتتبع الظواهر الغريبة وأعمال التجسس

ما أكثر ما يلوح فى عالمنا بين الحين والآخر من ظواهر عجيبة محيرة ، بعضها يجد التفسير المنطقى بقليل من التأمل والدراسة ، وبعضها يستغرق وقتا طويلا وجهودا مضنية لكن العلماء يتوصلون إلى حل رموزها فى النهاية ، ويظل البعض لغزا مستغلقا على الأفهام غير أنها تبقى فى دائرة محاولات الإنسان الذى لا يعرف فضوله لليأس معنى .

فيما مضى كان الإنسان لايعلم هذه الظواهر إلا بالقدر الذى يلوح له فى بيئته ، أما اليوم فإنه يبحث عنها ، يرصدها ، ويتصيدها فى كل مكان من العالم ، ثم يجعل فك ألغازها شغلة الشاغل . ومن هذه الظواهر جزر تظهر ثم تختفى ، بحيرات تفيض ، ومدن تغزوها الفئران .

وهكذا نجد لكثير من الجامعات فى الدول المتقدمة معاهد تهتم برصد الظواهر الغريبة ، وإيفاد خبرائها لدراستها حيث تكون ، لكن معهدا واحدا حتى الآن تخصص فى هذا العمل ، وغطى الكرة الأرضية بشبكة من العلماء والمراسلين والباحثين لمتابعة كل ما يطرأ من ظواهر غير عادية فى أى فج من أرجاء المعمورة .

وعلى الرغم مما يحيط بمعهد « سمتسونيان » الأمريكى من شبهات ، وما يقال عنه من أنه ينبوع من ينابيع المخابرات المركزية الأمريكية ، إلا أنه بلغ من القوة العلمية ، ما جعل الاتحاد السوفيتى لا يأنف من التعاون مع علمائه مثلهم كمثل غيرهم من علماء الشرق والغرب ، من أجل التعاون على اكتشاف المزيد من أسرار العالم الذى نعيش فيه .

٢٣٠٠ مراقب فى ١٣٨ دولة :

استطاع الإنسان أن يطأ سطح القمر ، وأن يقتل بقنبلة ذرية فى

هيروشيما وناجازاكى عشرات الألوف من إخوانه البشر ، وأن يسير الغواصات بالطاقة النووية ، واستطاع أن يزرع قلب إنسان فى صدر إنسان آخر وأن يرى



بالتليفزيون الأشياء من بعد آلاف الأميال ولكنه اكتشف فجأة أنه يبحث فى الآفاق البعيدة ، بينما ما تزال أشياء تحت قدميه لا يعرف عنها شيئا ، ومن هنا بدأ الاهتمام بدراسة المزيد عن أرضنا وما يجرى فيها وحولها ، فكانت فكرة تعزيز هذا المعهد .

ترجع فكرة تعزيزه إلى عام ١٩٧١ : عندما اكتشف باحث فلبينى اسمه مانويل الزالدى ، مجموعة صغيرة من الناس ، تعيش فى جزيرة صغيرة فى الفلبين ، معزولين تماما عن العالم وما يجرى فيه من تطورات ثقافية أو حضارية أو غيرها ، ربما منذ عشرات الآلاف من السنين ، كل أدواتهم من الصخر ، لا يعلمون شيئا عن وجود أجناس أخرى من البشر على سطح الأرض . . العالم فى نظرهم عبارة عن غابة ممطرة تقع على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، لم يخرجوا من أدغالها ، ولم يفكر أحد من أسلافهم على مر آلاف السنين أن يخرج عن حدودها ، ربما لنصوص فى عقيدتهم الوثنية تحرم عليهم ذلك ، وتهدد بالويل والثبور وكوارث الأمور كل من

تسول له نفسه بالابتعاد عن الهضبة التى استوطنوها . هذه العشيرة التى تسمى تاسيدى مانوبا التى تعيش فى جزيرة منداناو ، انتشر خبر اكتشافها بواسطة معهد سمتسونيان لدراسة الظواهر الغريبة ، وأثار ضجة كبيرة حولها ، فتسابق العلماء من مختلف البلاد لدراسة حالة هؤلاء الناس وكيفية معيشتهم ، وكل ما يتعلق بوجودهم فى تلك البقعة ، ولم تكن هذه الحالة سوى نموذج من نشاط ذلك المعهد ، الذى اتخذ له مقرا بمدينة كمبردج الأمريكية ، ولديه مئات من المراقبين فى كل أنحاء العالم ، يبلغ عددهم حوالى ٢٣٠٠ مراقب ، ينتشرون فى ١٣٨ دولة .

هؤلاء المراقبون على اتصال دائم بمركز المعهد ببرقيات التليكس ، ينقلون إليه الأحداث الغريبة التى تقع بالبلاد التى يوجدون فيها .

٦ خطوط هاتفية و ٦ تليكس :

ومن بين الأشياء التى يهتم بها هؤلاء المراقبون ، سقوط النيازك ، والهزات الأرضية ، والأجسام الطائرة المضيئة ، وانتشار وباء الطاعون بفعل الفئران ، وما شابه ذلك ، وهناك من يؤكد أن عشرات من جواسيس أمريكا قد انبثوا وسط هؤلاء المراقبين فى البلدان التى يعملون فيها . وتدل الإحصائيات على أن المعهد يتلقى معلومات غريبة بمعدل مرتين أسبوعيا ، حينئذ ينشط بشكل كثيف ، ويخطر مراكزه ومعاونيه فى كافة أنحاء العالم بمعلوماته الجديدة فتنهال عشرات الأسئلة على مصدر المعلومات الأصلى من علماء البلاد المختلفة ، وينتقل غيرهم إلى مسرح الحدث للمتابعة والدراسة وإجراء التقارير السريعة عن المفاجآت المذهلة ، وتغذية الجامعات ودور نشر الصحف ووكالات الأنباء بها . ويعلق علماء الجامعات فى الشرق والغرب أهمية على تعاونهم مع هذا المعهد ، لأنه عن طريق الاتصال السريع بهم ، يسر لهم أن الوجود فى مكان الحادث أثناء استمراره ، حتى يستطيعوا مشاهدته عن قرب ، وملاحظة ظواهره ، وبالتالى إدراكه وتفسيره على وجه أفضل . أما الغاية الكبرى فهى الرغبة فى تفهم غوامض الأمور الجارية فى كوكبنا ، خاصة بعد أن ذكر أحد رجال الفضاء فى تقريره أن كوكبنا

تراءى له كمركبة فضائية تدور فى الفلك ، مستقلة تماما بما عليها ، عما هو حولها ، وأن على العلماء أن يكتشفوا القوى التى تحافظ على هذه الكتلة الضخمة المنطلقة بسرعة ، دون أن تفقد تماسكها ، عليهم أن يبحثوا عن أسباب جديدة غير الأسباب التقليدية التى عللوا بها ثوران الجزر البركانية ثم خمودها واختفاءها فى زمن لا يزيد على ثلاثة أيام ، تاركة وراءها الغازات التى تلوث الجو لسنين طويلة !!! . . .

من أجل هذا يظل المهتمون بغرائب الظواهر على اتصال دائم بمعهد سمتسويان عن طريق ٩ خطوط هاتفية ، و ٦ دوائر للتليكس والتلبرنتر ، تعمل على مدار الساعة ، تستقبل أو ترسل أغرب الأخبار أو الاستفسارات .

جزر تختفي وبحيرات تفيض :

فى عام ١٩٦٧ حدث انفجار بركانى فى جزيرة **ديسبش** ، أى : الجزيرة الخادعة وتقع هذه الجزيرة فى انتركتيكا ، والغريب أن هذا الانفجار البركانى أظهر للوجود جزيرة جديدة فى خليج **تيليفون** ، وظلت أجراس هواتف المركز لا تكف عن الرنين تتلقى الأسئلة من كافة أنحاء العالم



مولد جزيرة بفعل بركان بالقرب من جزيرة سولون

ومن أغرب التقارير التى بثها المعهد ، أنباء كارثة الفئران عدة أسابيع . التى حلت بـ « فكتوريا » ، وفى جنوب ويلز الجديدة باستراليا عام ١٩٦٩ ، إذا اجتاحت ملايين الفئران مناطق واسعة ، تلتهم المحاصيل وتخلف الدمار أينما سارت قطعانها الكثيفة ، مما أدى إلى إعلان حالة الطوارئ بين المواطنين ، وإلى أن يعبئوا أنفسهم فى حرب ضد جحافل تلك القوارض التى لم تبق ولم تذر ، وبلغ مجموع ما يصطاده فلاحو القرية فى


اقتحمت جحافل الفئران مدن استراليا

ليلة واحدة أكثر من ٤٠٠ فأر ، وقيل يومها : إن أعداد الفئران فى المدن الموبوءة كانت أكثر من تعداد السكان . أما السبب فى هذه الكارثة فكان الجفاف الذى أدى إلى نقص الغذاء ، ومع تكاثر الفئران وجوعها اقتحمت القرى والمدن لتسلب الناس مخزونهم من الطعام ، وأمكن حسم القضية بتعقيم مخازن الأطعمة والمحاصيل واستخدام السموم والمبيدات المضادة لها .

هذا ويهتم المعهد أيضا إلى جانب تسجيل الهزات الأرضية ، والانفجارات البركانية بظواهر انزلاق التربة ، والانهيارات الثلجية

معمرون يكشفون أسرار طول العمر !!

ما من إنسان عاقل إلا ويتمنى أن يمتد به العمر حتى يتجاوز مائة عام وأكثر ، حتى البؤساء المطحونين يرغبون فى أن تطول أعمارهم لعلهم يعيشون زمنا مترفا بعد السنين العجاف ، ويحققون آمالا تهمهم ، وهؤلاء وأولئك يشترطون أن يكون طول العمر مقرونا بالصحة والسعادة ، أما طلاب الموت انتحارا أو بالتمنى ، فهم قلة نادرة غير سوية[1] .

والسؤال هو : لماذا يعيش بعض الناس أكثر من غيرهم ؟ وما أسلوب حياتهم الذى ينبع منه طول أعمارهم ؟ على هذا السؤال أجاب عدد من المعمرين الذين جاوزوا مائة عام ، فماذا قالوا ؟

النشاط نهارا والنوم ليلا :

آن ليماى سيدة أميريكية من أصل فرنسى ، تعيش فى مدينة « ممفيس » بلغت من العمر ١٠٥ سنوات ، قالت : إنها لا تدرى سببا لطول عمرها . واستطردت تقول : « أما إذا كنت تعزو طول عمرى إلى أسلوب حياتى ، فأنا أبذل قدرا كبيرا من النشاط والحركة طيلة اليوم ، وأنام نوما صحيا من بعد الغروب حتى الفجر ، وآكل تفاحة مع كثير من الحليب الطازج يوميا ، وأنا متفائلة بطبعى لا أقرأ أو أسمع أو أفكر إلا فى الأفكار السعيدة المرحة ، أساعد المحتاج ما استطعت ، وأتعاطف مع الجيران ، وأزور المرضى فى المستشفيات أقدم لهم أزهارا من حديقتى ، وأتعرف أسباب أمراضهم لأتخذ أسباب الوقاية منها ، وأحرص على ألا تبدر منى كلمة تسئ إلى أحد حتى

---

(١) لا يرضون بقضاء الله وقدره !



اليس مينيك ١٠٦ سنوات

آن ليماى ١٠٥ سنوات

لا يسئ إلى أحـــد فيعكر صفو السلام والهدوء الذى أعيش فيه . وفيما عدا ذلك فإننى أشغل وقت فراغى فى هوايات عملية لطيفة تعود على بالفائدة ، وأمارس تمرينا رياضيا يلين كل عضلات جسمى ويحافظ على تحريك الدورة الدموية ووصول الدم إلى كل خلايا أطرافى » .

تنفيذ نصائح الأطباء :

وتمثل السيدة **أليس مينيك** نموذجا آخر من المعمرين ، إذ بلغ عمرها ١٠٦ أعوام رغم أن الأطباء اكتشفوا أن قلبها مريض منذ كانت طفلة فى الثالثة عشرة من عمرها ، وهى من أهالى مدينة « دايتون » الأميريكية ، تعمل من ٦ ـ ٨ ساعات يوميا ، فى تحويل البطاطين الكبيرة إلى بطاطين أطفال موشاة بالتطريز كما تنتج مصنوعات يدوية أخرى مربحة ، وتضيف إيراداتها إلى معاش بسيط تتقاضاه من الضمان الاجتماعى ، لتدفع تكاليف إقامتها فى منتجع للمسنين .

تقـــول « أليـــس » : « صارحنى الأطباء فى طفولتى بأن قلبى مريض ،

وذكروا لى أن ترددى على المدرسة وما يصاحب ذلك من حركة سوف يعجل بموتى ، فمنعنى أبى من الذهاب إلى المدرسة ، نفذت أوامر الأطباء بدقة اقتصدت إلى أقصى الحدود فى حركاتى حتى شفيت .

وعندما تزوجت حرصت على الاستمرار فى تنفيذ أوامر الأطباء فكنت أقوم بأعمال البيت على مهل فى فترات متقطعة بحيث لا أجهد نفسى ، وكنت أشغل وقت فراغى فى حياكة الملابس وأشغال الإبرة . وأعتقد أن سر طول العمر يكمن فى أن يعرف الإنسان على وجه الدقة حق بدنه عليه ، ولا يكلف نفسه فوق طاقتها ، وينفذ أوامر الأطباء ، ويتمسك بالقواعد الصحية .

العمل والضحك يطيلان العمر :

عندما احتفل أقرباء **جوزفين فيريشيا** بعيد ميلادها وجدوا بالكعكة عشر شمعات تمثل كل منها عشر سنوات ، وحول الكعكة الكبيرة اجتمع أولادها العشرة وأحفادها التسعة والعشرون وأحفاد أولادها الواحد والسبعون ، وأحفاد أحفادها الاثنا عشر .

ولما سئلت عن سر عمرها قالت : « كل ما أستطيع قوله هو أنى لم أعرف لراحة الجسم طعما منذ هاجرت مع أبى من ايطاليا إلى أميركا فى



جوزفين فيريشيا ١٠٠ سنة

الثانية عشرة من عمرى ، وتزوجت فى سن مبكرة فانشغلت بتربية الأولاد ثم الأحفاد ، وأحببت تمضية أوقاتى مع الصغار أعتنى بهم ، وأوجههم ، وأناقش الكبار منهم وأمرح معهم . لا أطيق الجلوس مع المسنين ، ولا أحب سماع مشاكلهم وأحزانهم وهمومهم ، لأن الهموم تقصر الأعمار ، أحب من يضحكنى وما يضحكنى وأمضى أغلب وقتى فى الهواء الطلق مع أحفادى وأحفاد أحفادى . رياضتى العمل المضنى فى البيت وطعامى أغلبه فواكه وحليب » .

الموت لا يركض وراء المشغولين :

دوناتو ريزولو فنان تشكيلى ومهندس معمارى أميركى من أصل إيطالى يعيش فى نيوجيرسى ، رسم مئات اللوحات منها واحدة للرئيس الأميركى الأسبق أيزنهاور ، يبلغ من العمر ١٠٤ سنوات .



دوناتو ريزولو ١٠٤ سنوات

قال ريزولو : « الموت لا يركض وراء المشغولين أصحاب الأهداف والغايات ، بينما يجد فى الكسالى والمتسكعين الخاملين صيدا سهلا . أنا

أشغل فكرى دائما بهدف أسعى إليه وأتعب جسمى فى تنفيذه ، فقد أتيت من إيطاليا فى سن الثالثة عشرة ، واشتغلت فى مصنع ، ولما بلغت التاسعة عشرة بدأت أدرس الهندسة جامعا بين الدراسة والعمل ، حتى أصبحت مهندسا بعد عشر سنوات ، لم أكف يوما عن الاطلاع على كل ما يستجد من معلومات فى فن العمارة ونجحت فأسست شركة معمارية أديرها . أفكر اليوم فيما أفعله غدا وبعد غد ، وأعيش لأنفذ سلسلة من الخطط والغايات . أجدد وأبتكر أهدافا أسعى لتنفيذها حتى لا يتجمد ذهنى ويتحجر ، وعلى سبيل المثال ، لم أكتف بالرسم ، بل أفلح حديقتى بنفسى ، لا أعترف بفكرة الشيخوخة ولا بضرورة التقاعد فى سن معينة ، كما أنى لا أحمل جسمى ومعدتى وأعصابى أكثر من طاقتها » .

التطلع إلى الوراء :

ولما سئل النجم العالمى فريد استير عن سر حيويته المتدفقة ونشاطه النادر رغم بلوغه السادسة والسبعين آنذاك ، أجاب بقوله : « لماذا لا أفيض تفاؤلا وثقة بالمستقبل ، فما تزال أمى فى صحة جيدة تحسدها عليها الشابات رغم



فريد استير ٧٦ سنة

بلوغها الثامنة والتسعين . إن سر شبابى الدائم بعد الخامسة والسبعين يكمن فى أننى لا أنظر إلى الوراء مطلقا ، أخترق دائما بنظرى وأفكارى وطموحى آفـاق المستقبل أمامى ، حيث تنتظرنى آمال كبيرة وأعمال كثيرة أسعى إليها لأنجزها وأحققها . حتى أعمالى القديمة لا أشاهدها ، ولا أحتفظ بما يذكرنى بالأيام الماضية ، ويجعله متحفا للآثار أنا إحدى معروضاته .

حساب السنين يذكرنى بأنى عجوز ، ولكننى لا أشعر بذلك ولا أميل إلى تصديق حساب السنين فلم أكف عن أى نشاط عضلى كنت أزاوله فى شبابى ، ولذلك أحتفظ برشاقتى وخفة حركتى . أستطيع أن أؤدى كل التمرينات الرياضية ، ولا زلت أمارس الرياضة ربع ساعة كل يوم كجزء من برنامج متعتى الشخصية ، وأعتقد أن عدم النظر إلى الوراء هو أعظم أسرار الاحتفاظ بالشباب » .



انتشال البارجة - فازا - بعد ثلاثة قرون تحت الماء ..

كثيرا ما ينتشل المحترفون سفنا غارقة من زمن بعيد طمعا فيما تحتويه من كنوز وثروات جمعها القراصنة قبل الغرق ، غير أن السويديين حينما رفعوا البارجة فـــــازا من قاع البحر ، لم ينتشلوا مجرد سفينة حربية ، وإنما استعادوا قطعة من التاريخ البحرى السويدى كانت عزيزة عليهم . ففى مساء يوم مشمس من أيام أغسطس عام ١٦٢٨ ، فقد الأسطول البحرى السويدى البارجة الحربية « فازا » . شاهد الكارثة أغلب سكان ستوكهولم وكان عددهم آنذاك ١٠٠٠٠ مواطن ، كانوا قد تجمعوا فى زحام على طول الشاطئ ، ليروا ملكة الأسطول الجديدة ، وهى تنطلق فى رحلتها العذراء .

لم يظهر ما ينبئ بأن أى شر قد يحدث . كانت « فازا » سفينة هائلة بمقاييس ذلك الزمن ، طولها ٥٠ مترا وكأنها الأسد المتوثب ومن يتأمل مقدمتها ، إلى نهاية الدفة الخشبية التى تزن ثلاثة أطنان فى المؤخرة ، يجد أنها كانت تعتبر فتحا جديدا فى فن بناء السفن . وكان منظر السفينة رائعا جدا ، ليس لأن بدنها قد أجيد طلاؤه وزخرفته وإنما لأن الفنانين أبدعوا حفر أخشابها وصباغتها بحيث بدت السفينة متوهجة كشمس صيف السويد الغاربة ، وعلى جانبيها فوهات ٤٨ مدفعا برونزيا ، وعلى متنها الكابتن هانسون ، أكثر القباطنة البحريين خبرة ، كان واقفا يصدر الأوامر .

عندما كانت السفينة راسية فى ملاذها قرب التلال الصخرية الشاهقة ، لم تهب عليها سوى نسمات شاحبة بالكاد تداعب قلاعها الأربعة العظيمة وربما كان ذلك مدعاة لابتهاج كبار الشخصيات الذين كانوا على ظهرها ، مع ١٣٣ بحارا هم طاقمها ، وشاهدت الجماهير خيطين من الدخان ينبعثان

من جانب السفينة ، ثم انطلقت المدافع إيذانا بإبحارها تنفيذا لإشارة القبطان . على غير ما كان متوقعا انبعجت أشرعة « فازا » فجأة ، وكأنما اقتنصتها الرياح فجأة ، وتأرجحت السفينة العظيمة مرة ، ثم اعتدلت ، وأبحرت حتى خرجت من الملاذ الصخرى . أيقن المتجمهرون أن الرياح هناك على بعد أقوى مما ظنوا ، لأن الأشرعة امتلأت بالهواء مرة أخرى ، ومالت « فازا » بزاوية تنذر بالخطر ، وانتظروا أن تعتدل ، ولكنها بدلا من ذلك استمرت فى التمايل والترنح ، وخلال لحظات رقدت البارجة على جنبها ، ولامست أشرعتها الماء . وصرخ المشاهدون وقد استولى عليهم الفزع ، وانقلبت البارجة إلى سلحفاة ، ظهر قاعها فوق سطح الماء فى ثوان قليلة ، ثم تلاشت تدريجيا تحت الأمواج ، وغرقت أعظم سفن أسطول السويد على مرأى ممن جاءوا يحيونها ، فى بداية رحلتها العذراء ، ما السبب ؟ وكيف وقعت مثل هذه الكارثة المذهلة ؟ . . . رجل واحد كان باستطاعته تفسير ذلك ، وهو جوران ماستون أستاذ صناعة السفن ، الذى لابد أنه فكر بحرارة عندما أطبقت عليه الأمواج فى غباء السلطات ، فقد اعترض منذ البداية على ثقل وزن الصابورة[1] التى زودوا بها البارجة ، وكثرة عدد الركاب ، خصوصا إذا بحرت السفينة بفوهات مدافعها مفتوحة . حيث أجابوه بأن الصابورة ضرورية لموازنة العارضة الرئيسية ، وأن الناس يتوقعون فى احتفال بهذه المناسبة أن يشاهدوا المدافع ، وأن فوهاتها المفتوحة لم تكن أعلى من سطح الماء إلا بأكثر من متر واحد بقليل .

كان للسلطات تفسير من نوع آخر ، قالوا : إن مياه البحر اندفعت إلى السفينة بمجرد أن مالت فى المرة الأولى ، ونفذت إليها من خلال الفتحات ، فازداد انحرافها وابتلعت مياهاً أكثر فأغرقتها ، ولا جدال فى أن الغباء الإدارى هو الذى أرسل البارجة العظيمة إلى حتفها .

انتشال السفينة الحربية كان أمرا فوق طاقة إمكانات القرن السابع

(١) الصابورة : ما يوضع فى بطن السفينة من الثقل لكلا تميد .

عشر ، وكل ما فيه من خبراء ، وبعد زمن قصير لم يعد يتذكر أحد أين غرقت « فازا » بالضبط ، وفي عام ١٩٢٠ كان صياد قد أوقف زورقه بعيدا عن الشاطئ وألقى شباكه ، ولما أراد أن ينتقل إلى مكان آخر ، تبين أن المرساة قد علقت بشئ في قاع البحر . فكلف غطاسا تصادف وجوده بأن يغوص ويخلص المرساة ، فاكتشف الأخير أنها عالقة في حطام سفينة قديمة غارقة ، وسرعان ما ترامى الخبر إلى الخبير البحري السويدي البروفيسور **نيلز اهنلوند** ، وقال : إن السفينة الغارقة هي **ركسنجكلين** التي اصطدمت بالصخور وتحطمت إربا في نفس السنة التي غرقت فيها البارجة « فازا » .

بعث الاكتشاف ذكرى « فازا » في مجال اهتمام البروفيسور ، وأمضى سنوات في دراسة الكارثة ، حتى اقتنع بأن البارجة الغارقة ترقد تحت رابية رملية في قاع البحر ، لكن السلطات البحرية السويدية لم تقتنع ، وعجز اهنلوند عن مواصلة أبحاثه لأنه لم يجد من يزوده بالمال اللازم للإنفاق على المشروع ومرت ٣٠ سنة قبل أن يفكر أحد في الأمر تفكيرا جديا في إماطة الغموض عن مكان « فازا » . وفي أوائل الخمسينات من القرن الحالي ، قبل التحدي عالم آثار بحري شاب اسمه **انديرز فرانزين** ، وظل يمسح ميناء ستوكهولم الكبير صيفا بعد صيف بواسطة زورقه الآلي الصغير ، وكلابات[1] أدلاها بأسلاك ، يمشط بها قاع البحر وراء الزورق ، لكنه لم يعثر إلا على دراجات صدئة ، ومواقد عتيقة ، وقليلا من الأشياء ذات الأهمية . بعدها صمم آلة لاستخراج عينات من قاع البحر ، وبعد أيام سلمت له الآلة شظايا خشب بلوط عتيق ، ونزل الغواصون ثم أخبروه أن « فازا » راقدة تحت رابية من الطين ، فأيقن أنه أمام نصر في عالم الآثار البحرية .

اطلع على المراجع فوجد أنها ترجح أن تكون البارجة قد اعتدلت أثناء غرقها بعد أن امتلأت بالماء وغاصت على قاعدتها والأهم من ذلك أن

(١) ... معوجة الرأس ينشل به الشيء أو يعلق .

السفن الغارقة فى بحار أخرى تميل إلى التمزق أثناء غرقها ، مثل « تيريدوس » والسفينة « شيبوورم » بينما رجح الجميع أن تكون « فازا » سليمة متكاملة على عمق ٣٠ مترا على حالها الذى غرقت به . إن العثور على السفينة التاريخية عمل أثرى رائد فى حد ذاته لكن انتشالها يعتبر فوزا لا يقدر بثمن . . . كيف الوصول إلى هذه الغاية ؟ ومن ناحية أخرى : على فرض أن أخشابها ظلت سليمة متماسكة فإن المسامير التى تربطها ربما أصابها الصدأ والتآكل ، ومن المحتمل أن تتفكك السفينة لدى أقل حركة ، وتقرر تمرير كابلات الصلب أسفل « فازا » وربطها بعوامتين ضخمتين مملوءتين بالماء تستقر كل واحدة منهما فوق أحد جانبى السفينة ، ثم يفرغ الماء من العوامتين تدريجيا بمضخات وبتعويمهما ترتفع السفينة عن قاع البحر .

كانت الخطة منطقية ، لكن تطبيقها أثبت صعوبة عظيمة بحيث لا يستطيع القيام بتنفيذها إلا الأسطول السويدى ، وقد أخذ على عاتقه إنجاز المشروع بالفعل . واستخدموا خراطيم الضغط العالى لإزاحة الطين من السفينة حتى يستطيع الغواصون العمل فيها ، ودقوا آلاف الأوتاد الخشبية فى بدن البارجة لتحل محل المسامير المتآكلة ، وكان ذلك عملا خطيرا مريرا استغرق ثلاث سنوات . وفى أغسطس عام ١٩٥٩ اكتمل تحزيم بدن السفينة بكابلات الصلب واتخذت العوامات وضعها ، ودارت المضخات تفرغها من الماء ويحل محله الهواء ، وبدأت « فازا » تنهض من مدفنها فى الطين ببطء ، وترتفع عن قاع البحر ، ثم يعاود الفنيون إنزالها من جديد . وكرروا العملية مرارا ، وفى كل مرة يسحبونها عشرات الأمتار حتى بلغت مسافة سحبها خلال شهر كامل ٥٠٠ متر ، نظرا لأن الكابلات كانت كثيرا ما تنزلق ، ويكرر الغواصون إعادتها إلى أماكنها ، وأخيرا أمكن سحب « فازا » إلى حوض جاف حيث ظهرت منها أول كتلة خشب سوداء فوق سطح الماء تدريجيا ولكن ليس بنفس السرعة التى كانت قد غاصت بها فى الماء .

كان اكتشافها وانتشالها تجربة فريدة ، حظيت بها سفينة بنيت قبل ١٥٠ سنة من انتصار نلسون ، وما تزال المدافع جاثمة على قواعدها وهياكل البحارة هنا وهناك ملفوفة فى ملابس داست عليها عجلات المدافع عندما ترنحت فازا قبل غرقها . كل شئ على ما كان عليه حين وقوع الحادث المشئوم ، الذخيرة فى المخزن ، وصندوق مغلق يحتوى أدوات النجارة التى كانت تستعمل قبل ٣٠٠ سنة ، وطعام فى المطبخ ، ومضخات السفينة فى حالة جيدة قابلة للاستعمال ، وصندوق احتفظ فيه بحار بقبعته ذات الأركان الثلاثة ، ومجموعة خياطة ، وكيس نقود يحتوى على قطع نقدية لذاك العصر . والآن ترقد « فازا » على قاعدة من الأسمنت المسلح فى مبنى متحفها الخاص ، الذى يخضع لتحكم شديد دقيق فى درجات الحرارة والرطوبة ، لحفظ الخشب .

غابت السفينة ثلاثة قرون ، لتعود كقطعة حية من التاريخ ، ولتشرح للدارسين بعض جوانب حياة السويد فى ذلك الأوان ، بما عثروا عليه فيها من أشياء ، فقد وجدوا فيها طعاما وشرابا محفوظا فى آنية محكمة منها الزبد والجعة ومأكولات أخرى بقيت لم يتسرب إليها الفساد وإن كانت قد فقدت مذاقها ، كما وجدوا فيها صناعات يدوية أخرى .



ملاح ضل عن القافلة ... وفقد ثمانية أعوام

خرج الملاح مع رفاقه السبعة على زورق فى مهمة بحرية بسيطة لا تستغرق سوى زمن قصير . . . فإذا به يختفى كأنما ابتلعه البحر . وذهبت كل جهود البحث عنهم أدراج الرياح . . . ولم يلبث أن عاد بعد ما يربو على ثمانى سنوات وحينما عاد كان وحده ، وكانت الملكة اليزابيث فى انتظاره ترغب فى رؤياه والاستماع إلى قصته .

لم يكن محتما على بحارة السفن الغارقة أن يمضوا شهورا مضنية يصارعون الجوع فى الجزر المهجورة النائية أيام السفن الشراعية . . فقد كانت السفن تجمعهم من شطآن القارات والجزر المعروفة وقليلا ما كان بعضهم يختفى بلا عودة ولا يسمع عنهم بعدها أحد ، غير أن بيتر كاردو الذى كان بحارا فى أسطول الملكة اليزابيث واختفى سنوات عديدة فى قلب أميركا الجنوبية ، عاد ليروى أعظم قصة زاخرة بأعمال البطولة .

كان فرانسيس دريك يقترب ذات يوم من أيام عام ١٥٧٨ بأسطوله من مضيق ماجلان ، وكان أسطوله المكون من ثمانى سفن قد غادر شواطئ انجلترا منذ عام فى رحلته حول العالم ، وقد بلغ البحارة والسفن مبلغا كبيرا من الإرهاق والتوتر ، ومع ذلك ظل دريك يتبع فى قيادته أسلوبه الصارم ، وكان قد أعدم منذ شهور قلائل الكابتن دوتى أحد كبار ضباطه بتهمة التمرد . وفى أكتوبر واجه مشكلة بسيطة جعلته يرسل مجموعة صغيرة من رجاله فى مهمة مؤقتة بالسفينة اليزابيث . . وكانت جزءا من أعمال الملاحة الروتينية لكنها تسببت فى مصرع سبعة رجال ، وزج بيتر كاردو فى مغامرة

استمرت ثمانى سنوات . كانت المجموعة مكونة من أربعة ملاحين ، وثلاثة خدم ضباط ، ونافخ البوق ، وانطلقوا فى زورق صغير من الباخرة البريست لاستبدال السفن وهبت عاصفة ، فلما همدت لم يجدوا أثرا للسفينة اليزابيث أو غيرها من سفن الأسطول .



ظل الرجال يجدفون يومين فى جولات دائرية ، أملا فى أن يعود إليهم من يرشدهم وينتشلهم ، لكن الجوع والعطش أجبرهم على اللجوء إلى الشاطئ ، وهناك أعدوا وجبة المحار والسلّمون قبل أن يعودوا إلى البحر ، مقتنعين بأنهم إذا ظلوا على الشاطئ لن ينقذهم أحد . شقوا طريقهم على طول الساحل جنوب شرق الأرجنتين ، لا يقرب زورقهم الشاطئ إلا

للحصول على الطعام والماء العذب . وفى نفس الوقت بحثت عنهم السفينة اليزابيث فى نفس المدة دون جدوى وفى النهاية فقد كاردر ورفاقه كل أمل فى أن يروا أسطول دريك مرة أخرى فاتجهوا فى بطء إلى الشمال يقتاتون على السمك وعجل البحر . قتل الهنود اثنين منهم ، وهرب الناجون إلى جزيرة بعيدة عن الشاطئ وغرق الزورق قبل أن يصل إليها ، وغرق معه أربعة رجال فتبقى بيتر كاردر وبحار آخر اسمه وليم بيتشو ليعيشا معا على الجزيرة . بقى الرجلان معا فى الجزيرة شهرين ثم اتجها إلى شاطئ القارة على ظهر طاقية صنعاها من الخشب ، وجن جنون بيتشو من العطش بمجرد أن وصل إلى الشاطئ ، فأفرط فى الشرب من مياه أول نهر صادفاه ومات وأصبح كاردر وحيدا إلا من سيفه ودرع صغير . حث فى السير شمالا حتى التقى بمجموعة من الهنود حملوه إلى قريتهم حيث - لحسن حظه - احتفوا به وعاملوه معاملة طيبة ، قدموا له كمية كبيرة من الطعام تفوق حاجته ، فدعا أطفالهم لمشاركته الطعام ، وتأثر الهنود بما فعل فقبلوه ضيفا وصديقا .

مكث كاردر مع الهنود حوالى ستة أشهر ، تعلم خلالها قدرا جيدا من لغتهم واتخذوه ناصحا عسكريا كان السهم والقوس سلاحهم التقليدى وأدهش كاردر أن يكتشف أنهم لا يملكون ولا يعرفون وسيلة دفاع تقيهم من السهام ، فعلم أصدقاءه الجدد كيف يصنعون الدروع ، وكانت النتيجة أن أصبحت القبيلة منيعة قوية مرهوبة الجانب . عاش كاردر مع عدة جماعات هنود الواحدة تلو الأخرى ، وكان دائما يتحرك نحو الشمال ، ويبدو أنه كان موهوبا بالفطرة يجيد التفاهم مع الأقوام البدائية ويعرف كيف يكيف نفسه على التعامل معهم ، ويتأقلم بسهولة على ظروف حياتهم وطرق معيشتهم . وكان من بين الهنود جماعات كثيرة من آكلى اللحوم البشرية ، وكانوا يأكلون لحوم أعدائهم إذا وقعوا فى قبضتهم بعد قتال وسواء اشترك كاردر معهم فى احتفالاتهم الدامية أو لم يشترك ، فإنه لم يعبر عن اشمئزازه



حينما أشار إلى تلك الظاهرة فى سرده لمغامراته وأفاض فى وصف تفاصيل تلك الاحتفالات كشاهد عيان .

أخيرا وصل كاردر إلى البرازيل وعلم ذات يوم بإشاعة عن برتغاليين يقيمون فى مكان قريب ، فاهتم بالبحث عن هذا المكان وبعد رحلة استمرت ثلاثة أشهر وصل ميناء باهيادى تودوس أو سانتوس حيث سلم نفسه للحكومة المحلية هناك ، وعلى عكس ما كان يتوقع من ترحيب به باعتباره أوروبيا اعتبروا وصوله غارة على أراضي برتغالية ، وكانت عقوبة هذه الجريمة الأشغال الشاقة المؤبدة كعبد رقيق . ومن حسن حظ كاردر أن يقتنع الحاكم بأن القضية غير عادلة ، ويقرر رفعها إلى لشبونه حيث يتولى الحكم فيها

الملك بنفسه ، كان هذا يعنى تأجيلا للبت فى القضية ، والسماح لكاردر بالعيش فى باهيا والعمل من أجل كســب قوتــه إلى أن يقضى الملك فى أمره . مرت السنوات القليلة التالية على ما يرام ، ونشأت صداقة قوية بينه وبين تاجر اسمه دى بافا اشتغل معه مشرفاً فى مصنع سكر بملكه يرافقه عادة فى رحلاته التجارية على موانئ الشاطئ .

نسى الرجل الانجليزى مع الزمن أنه ما زال من الناحية القانونية سجينا إلى أن جاءه دى بافا مهرولا ذات يوم يحمل إليه أنباء سيئة ، بأن سفينة برتغالية أتت من طرف ملك البرتغال ، ومعها أمر ملكى بنقل البحار الانجليزى إلى البرتغال . اعترف دى بافا لصديقه بأنه لن يستطيع مساعدته بأى شئ لكنه قدم له زورقا صغيرا وأربعة زنوج ملاحين كوسيلة تساعده على الهرب وتقبل كاردر المساعدة شاكرا ثم انطلق على الفور متجها إلى الشمال مرة أخرى تؤازره رياح مواتية حتى وصل إلى ريسيف التى سميت فيما بعد باسم برنا ميوكو ، وكالعادة نظر الأهالى إلى الغرباء بعيون الشك . ذكر الزنوج أنهم صيادون تعساء عصفت بهم الرياح والأنواء إلى المكان رغم أنفهم ، وسمحت لهم السلطات بالعودة من حيث أتوا . . . وكان على كاردر أن يعود معهم لكنه كان قد اختفى كأنه تبخر . ظل كاردر متخفيا عن الأنظار ثلاثة أشهر ، حتى فوجئ بأن مالا يقل عن ثمانية تجار انجليز وصلوا فى سفينة برتغالية ، وتولاه الذهول ، لكن سرعان ما زالت دهشته حينما علم أن السلام قد حل مكان الحرب التى كانت ناشبة بين بريطانيا وأسبانيا . والتقى كاردر بمواطنيه التجار الانجليز ، فتكفلوا بنفقات سفره معهم فى طريق العودة إلى وطنهم ، وأبحروا إلى أوروبا فى أسطول من خمس سفن .

كانت الأخبار تنتقل ببطء شديد فى القرن السادس عشر ، ولم يكن أحد من ركاب القافلة البحرية يعلم أن السلام لم يدم طويلا وأنه كان قصير

العمر سرعان ما انتهى والقافلة فى أعالى البحار . وبالقرب من جزر الأزور رصدتها سفينتان حربيتان بريطانيتان ، وسرعان ما أصبحت السفن البرتغالية بما تحمله غنيمة للأسطول البريطانى بحكم القانون . لم يرق ذلك للتجار الانجليز الذين لا خيار لهم حيث رأوا أموالهم وحصاد رحلة طويلة خطيرة ، يتلاشى فى جيوب قباطنة الأسطول البحرى البريطانى وملاحيهم ، ولم تكن المناقشة تجدى مع أصحاب المنافع أما كاردر فلم يكن يعنيه شئ مما يجرى حوله غير الوصول إلى انجلترا ورؤية بلاده من جديد . ولازمه سوء الحظ حتى فى تلك المرحلة فجرفت الرياح السفن الأسيرة إلى ميناء ايرلندى ، لكن كاردر استطاع الوصول إلى تشيتشستر فى نهاية نوفمبر ١٥٨٦ ، بعد حوالى تسع سنوات من اليوم الذى أبحر فيه مع قافلة دريك .

وصل نبأ عودته إلى سماع اللورد هوارد قائد البحرية البريطانية فاستدعاه واستجوبه ، وعلمت الملكة اليزابيث بالنبأ فدعته إلى القصر وقدمه لورد **هوارد** إليها ، وجلست تستمع بشغف إلى قصص مغامراته ، الطويلة عدة ساعات ، وقبل أن ينصرف منحته ٢٢ انجل ، أى ما يعادل ١١ جنيها بالعملة الانجليزية ذاك الوقت .

وعلى الرغم من أن النقود كانت أكثر قيمة مما هى عليه الآن ، إلا أن المكافأة كانت تافهة إذا قيست بما كابده كاردر بعدما خرج فى مهمة رسمية ضيع فى سبيلها ثمانى سنوات من عمره فى صراع ومعاناة .




فهرس